روايات عبير

فيوليت وينسبر

الصّقر واليمامة

٢٩

الصقر واليمامة

كان «الصقر الذهبي» قصراً لا كالقصور، وسط ادغال البرازيل ومزارع البن الشهيرة باتساعها وروعتها. وكان الرجل الذي يملك المكان يدعى الدوق بيدرو روش زانو، واحداً من سلالة برتغالية عريقة جاءت طلائعها مع الفاتحين ...أما جين الفتاة الانكليزية الرقيقة، بشكلها الصبياني ووجهها الذي لم يجذب احداً من قبل، فجاءت بالصدفة الى البرازيل لتحضر زواج ابنة عمتها لارين من ذلك الرجل...

وتتغير كل المشاريع فجأة: يلغى الزواج وتجد جين نفسها وجها لوجه امام عرض الدوق بيدرو لتعمل مربية لابنه المعاق...فمن هو ذلك الطفل المدهش، وما قصة شقيقة الدوق التي نذرت العفة والابتعاد عن العالم في البرتغال، والى ايّ حدّ يصل بها ذلك الشعور بالحب تجاه الدوق، وهي فتاة عادية الشكل وحظها مع المغامرة لم يكن يوماً على اشراق؟

١ـ المهمة الصعبة

البحر شديد الزرقة كالياقوت المذاب تحت شمس لاهبة راحت تلقي بأشعتها الذهبية على الشاطىء.

وجين دابر تقف في الشرفة، تشد بأصابعها العارية على السياج، تتنشق نفساً عميقاً من الهواء الدافىء العطر برائحة البحر والمرجان والنباتات الطالعة هنا وهناك.

انها فتاة انكليزية شابة وتشعر بسعادة يشوبها الكدر حين تتأمل هذا المشهد، لأنها اعتادت على مناظر بلدها الهادئة المتناسقة. وجال نظرها في اتجاه الصخور الضخمة التي تلمع على الشاطىء، ثم ارتفع نحو القمم المكسوة بأشواك برية مزهرة وبأشجار النخيل القصيرة، وامتد بعدئذ صوب مدينة بورتو دي زانو.

ولبورتو دي زانو مكانتها في التاريخ بسبب حادث اختطاف تعرضت له بعض الراهبات على أيدي القراصنة. فقد تمّ دفع الفدية من الياقوت الاحمر الذي يملكه رجل يدعى بيدرو المنذور دي روس زانو وهو لورد يملك مئات الالوف من الهكتارات في البرازيل، منها هذا المرفأ وما يحيط به من قرى وبلدات. جين اطلعت على هذه القصة في الدليل السياحي الذي اشترته من مطار الريو وبدا لها ان القصة

مبالغ فيها، فالكتاب يذكر ان الدوق بيدرو كان على علاقة عاطفية مع فتاة برازيلية اضطرت الى دخول دير* اليمامة النائحة* بعدما انتهت علاقتها بالدوق الى الانفصال.

اغرورقت عينا جين بالدموع وهي تتأمل ما حولها من جمال. وهي التي اعتادت ان تضبط انفعالاتها منذ صغرها. فقدت والديها ولم تعد لها من يعطف عليها سوى عمة هي كل ما بقي لها من العائلة. انها تتردد في ان تفتح قلبها للناس او حتى للأشياء. لقد ادركت ان الناس يتقبلون الواثقين من انفسهم فقط ويرفضون الضعفاء. كما ايقنت ان الناس لا يميلون الا للذين يتمتعون بالجمال والاثارة. فكيف الحال معها وهي الفقيرة العادية المظهر؟

حولت نظرها عن الرمال المتلألئة تحت اشعة الشمس واستقرت عيناها على اشجار النخيل الخضراء المذهبة، تلمع أوراقها كالزمرد. آه لو تستطيع ان تحب هذا المكان ، ولكن من اين لها الجرأة؟

جاءت الى البرازيل لتحضر زواج ابنة عمتها لارين، على ان تعود بعد ذلك الى انكلترا مع والدة العروس مادج ديسموند، التي اصبحت جين بالنسبة اليها الرفيقة والسكرتيرة ومديرة اعمالها. وكانت العمة في حاجة الى جين لتضبط لها كل شيء، لأن مادج كانت ممثلة هزلية، طائشة، غريبة الاطوار، لم تتمكن يوماً من ان تصبح نجمة لامعة، برغم انها تمثل في افلام تؤدي فيها ادوار لسيدات من المجتمع الراقي، الذي تنتمي اليه.

دخلت مادج متهادية الى الغرفة ورأت جين سارحة في الطبيعة فبادرتها قائلة:

«اذا كنت تحلمين بفارس اسمر فأنصحك بأن تتخلي عن هذا الحلم والا

تتحرقي في المظاهر. فالبرازيليون ليسوا عاطفيين كما يحاولون ان يظهروا».

استدارت جين وتطلعت الى عمتها وقرأت في عينيها ما جعلها تدرك ان مادج تهيء لمعركة.

عضّت مادج على شفتيها العريضتين فاصبحتا نحيفتين بلون الارجوان والتقطت معطفها الحريري بخفة كما يلتقط المرء شيئاً ما. لكن ذلك لم يخف جين. فهي تعرف انها ليست جبانة تماماً مثل كل الذين يشعرون بانهم وحيدون ومنبوذون.

وبدأت جين تتوقع ان تتفجر الكلمات من فم مادج في اية لحظة. ولم تحاول ان تتكلم او تبدو منها اي حركة تدل على انها مستاءة او منزعجة. ذلك ان جين تحفظ لعمتها العرفان بالجميل. فهي التي أمنت لها منزلاً وارسلتها الى المدرسة ثم وظّفتها عندها بدل ان تريح نفسها من كل هذا العذاب وتضعها في احد المياتم.

«جين ، تعالي الى هنا. اريد ان اطلعك على امر ولا احب ان يسمع كل نزلاء الفندق ما سأقوله».

تركت جين الشرفة ودخلت الى الغرفة وقالت:

«ماذا عندك؟ هل حدث شيء؟»

ما عادت تناديها يا عمتي تنفيذاً لأوامرها. فهي تعتبر أن هذا اللقب يظهرها متقدمة في السن ويحط من قدرها كممثلة.

وبحركة غاضبة خلعت مادج معطفها الحريري وبحثت في حقيبتها عن علبة السكائر ثم وقفت تنتظر ان تشعل لها جين سيكارة.

وبعدما اخذت مادج سحبة عميقة تطلعت الى جين بغضب وقالت:

«نعم، حدث شيء، لن يكون هناك عرس، ابنتي لن تتزوج الدوق.»

كان الخبر مفاجئاً تماماً لجين ولذلك ارتمت على طرف المقعد الكبير واخذت تحدق في عمتها: كيف يمكن ان يكون الخبر صحيحاً مع ان لارين كانت متحمسة للزواج من رجل ثري، ناضج ومن طبقة النبلاء. وقالت جين:

«لا أظن ان الامر سيء الى هذا الحد. وقد تكون القضية ناتجة عن شجار بسيط سببه التوتر الذي لا بد منه قبل الزواج. واعتقد ان الامور ستعود لتنتظم من جديد.»

قاطعتها مادج بحدة:

«لارين، انها من اجمل النساء واغناهن في انكلترا. ترك لها والدها ثروة كبيرة. وان بدت متواضعة بالنسبة الى ثروة الدوق، كثيرون طلبوا يدها وعندما اختارت هذا البرازيلي لم اعارض برغم انني علمت ان للدوق ابناً سيرث اللقب. وانت تعرفين ان لارين عنيدة تتمسك بالقرارات التي تتخذها. وكانت تعتبر انها والدوق سيكونان زوجين مثاليين، حتى اقنعتني بان يتم الزواج بسرعة وببساطة من دون مراسيم واحتفالات. ظننت ان الدوق يفضل ذلك لأنه أرمل، لكنني علمت فيما بعد انه لم يتزوج، وان ابنه تريستاو هو ثمرة علاقة عاطفية قديمة، وانه يريد الزواج من ابنتي كي تكون اماً لهذا الولد الذي علمت انه معاق، بعدما اصيب في حادث سيارة وكان عمره ثلاث سنوات.»

اطفأت مادج سيكارتها بحركة عصبية واضافت:

«طبعاً الولد ليس مسؤولاً عن عاهته، والخطأ الذي ارتكبه الدوق في شبابه يمكن ان يكون مغفوراً. لكن ما لا يمكن ان اسمح به هو ان

تصبح ابنتي لارين سجينة في قصره، بعيدة عن الحياة المرحة التي تحبها، لتصبح اماً لأبنه غير الشرعي. طلبت من لارين ان ترفض هذا الزواج لكنها خائفة من مصارحته بأنها لن تتزوجه.»

سمعت جين اقوال عمتها وهي في ذهول. كانت هي ايضاً تعتقد ان الدوق أرمل وهو الآن يعترف بأنه والد لأبن غير شرعي. وهذا بالنسبة الى جين دليل انحراف خصوصاً وأن الدوق لاتيني. ذلك انه من المعروف ان النساء في امريكا اللاتينية منضبطات والرجال يعاملنهن باحترام.»

قالت جين بصوت منخفض:

«لا بد ان لارين اختبرت مزاجه الصعب قبل ان تخطبه. فمن الطبيعي ان يكون هذا الثري البرازيلي على شيء من العجرفة. هل هي متأكدة انها لم تعد تحبه؟»

تطلعت اليها مادج بسخرية وقالت بحدة:

«انت لا شك تقرأين القصص العاطفية. اننا نتحدث عن الزواج، عن الشراكة العملية الممكنة بين شخصين يجب ان يكونا زوجا وزوجة وليس سيداً وعبدة. منذ البداية افهمت لارين ان للرجل في امريكا اللاتينية نظرة متعالية الى الزواج، تختلف عن نظرة الرجل الانكليزي المتفهم، اللطيف، الهادىء. لكنها تجاهلت نصيحتي وهي تنتظر مني ان اخرجها من هذا المأزق الحرج في شكل مسرحي كأنها تتضرع الى الله.

«رأيي ان الدوق لن يتخلى عن لارين بسهولة. فالخطبة بالنسبة اليه خطوة مهمة وجادة يعتبرها شبه زواج، ولذلك ليس من السهل فسخها. انني افضل ان اتوارى انا ولارين عن الانظار قبل ان

يعرف الدوق ان الزواج لن يتم.»

سبق لجين ان سمعت من عمتها الكثير من التعابير الغريبة والكلمات المدهشة. لكنها الآن تجاوزت كل حدود.

قالت جين مستغربة:

«لا يمكن مواجهة هذا الموضوع الخطير بالتهرب، بل يجب ان تقابلي الدوق وتصارحيه . فهو، في كلّ حال، رجل ذو اصل نبيل وله مركز في البرازيل. ولا يحق للارين ان تتصرف معه كما تصرفت مع بيلي.»

«اعترف بانها لم تتصرف جيداً مع بيلي، وعندما نعود الى انكلترا سأحاول اقناعها بأن تمنحه فرصة اخرى. انه شاب لطيف وقدير وشريف والمجال فسيح امامه لأن يصبح في المستقبل ذا شأن.»

امسكت مادج رأسها بيديها وحدقت في جين بشيء من الحنان وقالت:

«عاملتك معاملة جيدة أليس كذلك؟»

كانت نبرة صوتها باردة وحادة كالماس الذي يلمع في معصميها.

ظلت جين جامدة كالتمثال. ولم تتحرك خصلة واحدة من شعرها الاسود الناعم واجابت بهدوء:

«نعم، انني اقرّ بذلك.»

«ولارين الم تعاملك مثل اختها تقريباً؟»

«تقريباً، نعم.»

«تفهمين اذاً ماذا قصدت؟»

«ليس تماماً.»

لم تستطع ان تتصوّر ان مادج تريدها ان تتولى هي اطلاع

الدوق على هذا النبأ المثير، ان تقول له بكل بساطة:لارين ترفض الزواج منك يا حضرة الدوق!

انتفضت جين وقالت بعصبية:

«لا! لن اتولى هذه المهمة! لا يمكنك ان تطلبي مني ذلك، انك تستغلين طيبتي واخلاصي واحترامي، انني مدينة لك بالكثير. فقد امنت لي البيت والعمل. لكنني لست مستعدة لأن اتحمل ردة فعل الدوق على القرار الذي اتخذته لارين. بل عليها ان تواجه مشكلتها بنفسها.»

فجأة تبدلت النظرة في عيني مادج. صارت مزيجاً من الحنان والسحر والاستمالة، واقتربت من ابنة اخيها وضمت يديها بشدة وقالت:

«يا عزيزتي . انك الانسانة الوحيدة القادرة على ابلاغه النبأ من دون ان تتخلي عن براءة الطفولة. لا يمكن اي انسان ان يغضب منك وهو ينظر الى هاتين العينين الصافيتين. لقد قمت بعدة عمليات من هذا النوع خلال السنوات الاربع التي عملت فيها معي، ونجحت. وانا متأكدة انك ستفعلين الشيء نفسه مع الدوق. انك تحبين لارين وهي الانسانة الاكثر قرباً منك فيمكنك ان تعتبريها اختاً. وانا متأكدة انك لن ترضي بأن تكون مجبرة على الزواج من رجل لم تعد تحبه.»

اجابت جين وهي تحاول العودة الى الواقع:

«يبدو ان لارين لم تتأكد من حقيقة مشاعرها تجاه الدوق قبل ان توافق على عرضه. ولكن يمكن القول ان الدوق وجد في لارين ما لم يجده في اي امرأة اخرى، فضلا عن ان لارين ستصبح بعد زواجها دوقة محترمة. ماذا تريد أكثر من هذا؟»

عادت الحدة والقسوة الى عيني مادج وهي تقول:

«حذار يا فتاة! ليس لك احد الا انا و لارين. العالم صحراء قاحلة بالنسبة الى من ليس عنده منزل او انسان يحنو عليه. لقد عشت معنا واعتدت حياتنا. انك تحبين المرح وبسهولة احرمك من كل شيء... كان في الامكان ان تصبحي ممثلة لو ان شكلك مقبول. اسمعي الآن: اتيحت امامك الفرصة لكي تمثلي الدور الذي أطلبه منك، واذا كنت بالفعل تريدين ان تسددي بعض ما فعلته لك من جميل فما عليك الا ان تقومي بالمهمة التي اطلبها منك.»

بدأت تعتمل في نفس جين احاسيس متناقضة. فبرغم شعورها بالغضب من كل ما قالته عمتها، لم تستطع ان تقاوم شعور المتعة والاعجاب بهذه الممثلة القديرة التي تجيد اداء دورها. ان مادج انسانة مشاكسة بطبيعتها وهي في هذه اللحظة تناضل، ولو بطريقة ملتوية من اجل ابنتها الوحيدة المدللة. ومادج تدرك انها اذا واجهت الدوق بنفسها، وهو الرجل القاسي، سيؤدي ذلك الى اصطدام بالشخصيتين والى تصلب في مواقفهما. اما جين فبطبيعتها الهادئة ووجهها الطفولي وبراءة عينيها تستطيع ان تؤدي المهمة من دون ان تضطر الى خوض معركة مع الدوق.

افاقت جين من تأملاتها على صوت مادج تقول لها:

«اذهبي وقابلي الدوق من اجل لارين ومن اجلي ايضاً. لن تخسري شيئاً. بل سترجين معطفاً من الفرو اشتريه لك حالما نعود الى لندن.»

«ارجوك يا مادج. لا تحاولي رشوتي. انا لا احب هذا الاسلوب في التعامل. ثم هل هي متأكدة انها لم تعد تريد الدوق؟ الا يمكن ان يكون قرارها نتيجة فورة غضب.»

يبدو ان جين ايضاً تخشى ردة فعل الدوق ان هو اطلع على النبأ.

انها لا تعرف الدوق وبدأت تتخيله: انه ماكر، خبيث، قاس، يتصيد النساء ثم يتخلىَ عنهن بعد ان ينال مأربه... تصوّرت انه سيوبّخها وسيطردها، هي السكرتيرة التافهة لأنها تجرأت وابلغته بأن لارين لم تعد تريده!

وجدت نفسها تسأل عمتها:

«وهل هو بالفعل انسان مخيف؟»

ومن غير ان تنتظر الجواب اضافت:

«في ايّ حال، لو كانت لارين مغرمة به لما رضيت بأن تتخلى عنه بهذه السهولة!»

حدجتها مادج بنظرة ازدراء وقالت:

«الحب نوع من العبث يستهوي الخادمات والفتيات التافهات. ولارين لا تأبه لهذه الحماقات. ولو انني كنت اعرف ان حياتها ستكون سعيدة مع الدوق لما اقنعتها بفسخ الخطبة. الرجل في امريكا اللاتينية يعتبر ان مكان المرأة الطبيعي هو البيت، في حين انه يسمح لنفسه بان يمارس كل انواع اللهو والمرح. ولارين لا يمكن ان تكون تلك الزوجة. انها تطمح الى الزواج من رجل ثري يسمح لها بالتمتع ببعض الامتيازات.»

وهنا قاطعتها جين قائلة:

«ماذا تقصدين بالامتيازات، هل تعنين المغامرات العاطفية.»

«لارين تستهوي الرجال، وامرأة من هذا النوع حرام ان تتحول لمجرد لوحة على جدار في قصر او قطعة اثرية في متحف. ان لارين مسكينة ولا تستطيع ان تتحمل نتائج لقائها بالدوق مرة اخرى.»

توقفت مادج قليلا ثم تقدمت نحو جين وقالت:

«لارين وانا سنغادر البرازيل مساء اليوم، اما انت فتطلبين موعداً من الدوق لمقابلته. وعندها تشرحين له كل شيء.»

بدأت جين تشفق على عمتها. لقد حاولت في البدء استمالتها بالتهديد والوعيد وها هي الآن تعترف بانها عاجزة عن مواجهة الدوق. وبأن جين وحدها القادرة على انقاذها وانقاذ لارين من المأزق.

فقالت جين:

«لارين لن تصبح ابداً امرأة مسؤولة يا مادج لأنك تسمحين لها بالعيش على هواها وبالسخرية من الناس وبعدم احترام مشاعر الآخرين. الناس ليسوا دمى.»

ابتسمت مادج وقالت:

«انك تلقين خطاباً اخلاقياً مملاً يا صغيرتي. وهذا الاسلوب ينفر الرجال. انهم يرون فيك الكثير من الفضائل والقليل من السحر. في اي حال لا تخافي. فان قلب الدوق لن يتحطم. ان انساناً مثله بلا اخلاق لا يمكن ان يكون عاطفياً. سيغضب بعض الشيء، لكنه لن يلبث ان يهادن اعصابه في انكسار عينيك.»

اشعلت مادج سيكارة وتابعت:

«تصوري يا جين كم كانت لارين حزينة حين ابلغها الدوق بكل وقاحة ان ابنه المعاق تريستاو يحتل المرتبة الاولى في قلبه وان كل ما هو مطلوب منها ان تكون اماً لهذا الولد المعاق. لقد توسلت اليّ لارين لانقاذها من هذه الورطة لأنها ترفض ان تعيش كلّ حياتها سجينة القصر مع ولد معاق ليس ابنها.»

توقفت فجأة لتأخذ سحبة من السيكارة ثم قالت :

«انا واثقة يا جين انك ستساعدينني. انت شجاعة وقادرة على

مواجهة هذا الوضع. وثقي بأنني لن انسى عملك هذا وسأكافئك.»

«لا اريد مكافئة. انني اوافق على مقابلة الدوق لأنه ربما حدث ابنه عن لارين، ومن حق هذا الفتى ان يطلّع على الحقيقة كلها. واذا لم اتمكن من مقابلة الدوق لسبب ما فسأجعله يطلّع على خبر فسخ الخطبة من الصحف بعدما تكونين انت ولارين قد غادرتما البرازيل.»

«حسناً. لا اريد تحمّل البلبلة التي ستعقب معرفة الدوق بالامر. ان ابناء امريكا اللاتينية يختلفون عنا تماماً. انهم يعتبرون الزواج امراً مقدساً من الآن فصاعداً، سأنصح لارين بألاّ تعاشر غير الانكلو ساكسون.»

ارتدت مادج معطفها وهمت بالذهاب. ثم التفتت الى جين وقالت:

«اتمنى الاّ تتراجعي عن قرارك. كما ارجوك الاّ تكوني قاسية على لارين عندما تتحدثين عنها مع البرازيليين.»

اقفلت مادج الباب وراءها تاركة جين وحيدة الاّ من القلق والشعور بالرهبة من مواجهة الدوق الخطير الذي لا تعرف عنه شيئاً سوى ما اطلعتها عليه عمتها.

٢ـ البلاغ والتبليغ

استأجرت جين سيّارة وطلبت من السائق ان يذهب بها الى مقرّ الدوق على شاطىء البحر المعروف بـ«فيللا الصخرة».

ظلّ السائق صامتاً طوال الطريق المتعرّجة، واكتفى بقيادة السيارة في مهارة. كان البحر الساحر يظهر بين الحين والآخر. كذلك القرى المبعثرة في محاذاة الشواطىء الصخرية العالية المحاطة بالاشجار ذات الاوراق الملونة. على الشاطىء، شاهدت جين زوارق الصيادين راسية على الرمال، مشدودة الاشرعة تنتظر ان يفرغ الصيادون ما اصطادوا من اسماك لنقلها الى المستودعات.

المنازل الصغيرة كانت مطلية بالكلس، شرفاتها من الخشب المخرم وهي قائمة وسط حقول الموز الاخضر وقصب السكّر وسنابل القمح التي لونتها الريح.

كان المظهر حياً وبدائياً كأنه لوحات من العصور الغابرة. وبرغم ان جين كانت مستعجلة للوصول الى الفيللا وانهاء مهمتها، لم تستطع ان تمنع نفسها من التمتع بكل ما تراه. سبق لها ان سافرت خارج انكلترا الى باريس و نيويورك، لكنها المرّة الاولى تصطحبها عمتها الى بورتو دي زاتو، الذي يعتبر من الاماكن التي لم تشوهها الحضارة، فلا ناطحات سحاب من الزجاج والاسمنت، ولا

ازدحام وضجيج وعجيج ولا هواء ملوثاً بدخان المازوت ولا قذارات وروائح نتنة. من نوافذ السيارة المفتوحة تتسرب رائحة البحر ويفوح اريج الارض فاكهة وبناً وسكراً وقمحاً وذرة.

راقبت جين عصفوراً جناحاه شقراوان يحلق دائماً الى اعلى، يبني عشه اينما كان في هذا الفضاء الساحر، حيث يعيش العقاب على رؤوس الجبال العالية.

شعرت جين انها باتت اسيرة هذا المكان الساحر، كم هو رائع هذا الاحساس بالحرية... الحرية؟ وعادت الذاكرة بجين الى الوراء. وادركت انها مدينة بالكثير للذين اهتموا بها بعد موت والديها. صحيح انها ثارت على عمتها عندما طلبت منها ان تنفّذ لها مهمة معينة لكنها مع ذلك عادت ورضخت لأنها فتاة فقيرة وعليها ان تفي الدين المفروض عليها من المال لعمتها كلما استطاعت الى ذلك سبيلاً.

ابنة عمتها لارين تملك مبلغاً من المال يجعلها قادرة على ان تكون مستقلة. لكن جين المليئة بكل معاني المسؤولية تشعر دائما بأنها يتيمة وبأنها مرتبطة رغماً عنها بالاخرين. انها تعرف ان في استطاعتها ان تترك مادج وان تبحث عن عمل في مكان آخر، لكن عاطفتها ووفاءها كانا يشدانها الى البقاء. في اي حال فالحياة عند مادج ليست مملة فهي ترافق عمتها الى التمارين على المسرحيات الجديدة وتشاهد الفنانين والصحافيين والكتّاب الذين يترددون دائماً على بيت مادج في حيّ وستمنستر الراقي في لندن.

هذه المتعة هي كل ما تملك جين ومن اجل المحافظة عليها قبلت ان تذهب الى فيللا الصخرة وبأن تقدم على مغامرة مقابلة الدوق لتبليغه بأن لارين لا تريده زوجاً لها.

في حقيبة جين صندوقة صغيرة بداخلهاالهدايا الثمينة التي قدمها الدوق الى لارين يوم الخطبة. انها مجموعة من الاساور والاقراط من الماس، وخاتم سوليتير معلق بسلسلة. لقد ارادت لارين ان تحتفظ بهذه المجوهرات معتبرة ان الدوق يملك الكثير منها لكن امها صرخت في وجهها في حدة قائلة:

«الحلي يجب ان تعود. عليك ان تتصرفي بلباقة كي لا تزيدي من ثورة الدوق، يكفينا ما سيقوله وما سيفعله عندما يتبلغ قرارك.»

افاقت جين من تأملاتها بينما كانت السيارة تدخل منعطفاً يؤدي الى ممر يحيط به من الجانبين عمودان حجريان ضخمان وعدد من الاشجار الاسبانية ذات الجذوع الزرقاء، تلتقي فوق الطريق بشكل قنطرة وارفة الظلال.

دخلت السيارة المنطقة التابعة للدوق. وهنا بدأت جين تحس بهول الموقف. وندمت لأنها وافقت على المجيء. كان عليها ان ترفض القيام بهذه المهمة. لكن ماذا تفعل بعاطفتها؟

انحنت نصف انحناءة الى الامام كأنها تريد ان تطرق على الزجاج الذي يفصلها عن السائق. كانت تريد ان تطلب منه العودة من حيث جاء، لكن الأوان كان قد فات، اذ وصلت السيارة الى الساحة الكبيرة التابعة لفيللا الصخرة.

فوجئت جين بما شاهدت. وخاب ظنها. كانت تتوقع ان ترى مكاناجميلاً متناسقاً يتفق مع ثراء الدوق، فاذا بها تجد نفسها امام بناء غريب يغلب عليه طابع البشاعة. وتذكرت ما عرفته عن زاتو، انها تنحدر من عصور قديمة. وتعود الى تاريخ اكتشاف البرازيل على ايدي البرتغاليين، ويوم كان النبلاء منهم يذهبون بسفنهم الشراعية

باحثين عن عالم جديد ويعمدون في الوقت نفسه الى الاستيلاء على ثروات الاراضي التي يكتشفونها ليعودوا بها الى وطنهم البرتغال، التي كانت في تلك الايام تعيش عصرها الذهبي.

يبدو ان جين كانت قد طرقت على زجاج السيارة عندما انحنت، من دون ان تنتبه. فاذا بالسائق يسألها:

«ماذا تريدين يا سيدتي؟»

«هل انت متأكد ان الدوق يعيش هنا؟»

«هنا فيللا الصخرة. ان حضرة الدوق يملك منازل اخرى بالطبع، في مناطق اخرى من البرازيل. وهو يأتي الى هنا للاهتمام بالمزروعات. لكن الجميع يعرفون ان منزله المفضل قائم في الارض التي زرع فيها البن. والمنزل هناك كبير جداً واجمل من هذا بكثير، وهو يدعى: منزل الصقر الذهبي. انه اسم اول سفينة عبرت مياه أميركا الجنوبية بقيادة أحد أسلاف الدوق الذي استحق اسم السفينة نفسها.»

ترددت جين في الدخول الى فيللا الصخرة. لكن السائق نزل من السيارة وفتح لها الباب. وهنا ادركت ان التراجع لم يعد ممكناً فتسلحت بالشجاعة ونزلت من السيارة وطلبت من السائق ان ينتظرها.

ارتقت السلالم المؤدية الى الباب الكبير المنحوت، يتدلى من احد جوانبه جرس من الطراز القديم، وشدت بالحبل فصدر عن الجرس صوت قوي، ارتعشت معه جين بعدما ادركت ان عليها الاستسلام للأمر الواقع.

انفتح الباب وظهر خادم يرتدي بذلة سوداء، وهو ينظر الى جين بلا مبالاة. ابتلعت جين ريقها وسحبت رسالة مادج من حقيبتها وقالت للخادم:

«جئت بطلب من السيدة ديسموند ناقلة هذه الرسالة الى الدوق. وآمل ان اتمكن من مقابلته لأن هناك امراً مهماً احب ان اطلعه عليه.»

تسلم الخادم الرسالة ثم دعاها الى الدخول وانصرف هو الى مواجهة الدوق.

اخذت جين تتأمل الفيللا من الداخل. فالارض مصنوعة من الخشب المرصع. والنوافذ من الزجاج الملوّن بالوان مختلفة على الشكل القوطي الذي يعكس روعة الغروب. وتبيّن لجين ان تصميم هذا المنزل مقتبس عن الكنائس البرتغالية. فالنور المائل الذي ينعكس على الارضية الخشبية يؤكد ذلك. اضافة الى الاثاث المنحوت من الخشب الغامق والثريات والنحاسيات ذات البريق الخافت.

تطلعت جين في المرآة. كانت شاحبة الوجه ذابلة العينين. نهضت واشاحت وجهها عن المرآة:ماذا لو كان الدوق يشبه هذا المكان المنفر الكئيب. اذا كان الامر كذلك فان لارين على حق.

عاد الخادم بعد قليل ليبلغها ان الدوق مستعد لمقابلتها ثم دعاها لترافقه الى الطابق الثاني حيث توقفا امام باب فتحه الخادم، وابتعد مفسحاً لها مجال الدخول الى غرفة واسعة ذات اثاث قاتم وليس فيها مقعد مريح.

وقفت جين في وسط الغرفة تسمع في شيء من الخوف دقات الساعة الزجاجية المثبتة في الحائط لقد مضت ساعتان منذ ان تركت الفندق لتأتي الى فيللا الصخرة. وها هي تنتظر الدوق منذ ربع ساعة. وادركت انها لن تنتهي من مهمتها الا بعد ان تستقل الطائرة عائدة الى الريو ومن هناك الى لندن.

وبينما كانت جين مستغرقة في تأملاتها سمعت الباب يفتح، ثم

اطلّ رجل طويل القامة، ثابت الخطوة، وينتعل حذاء من الجلد اللمّاع ويرتدي بدلة الفرسان البنية اللون التي ابرزت قامته الرياضية، وتحتها قميص بيضاء من القماش الناعم تغطي صدره الواسع وكتفيه العريضتين. تفرّست جين في الدوق وفهمت على الفور سبب اعجاب لارين به. ثم ارتعدت جين اذ فكرت ان زوجة لمثل هذا الرجل ستضطر الى الخضوع لنزواته.

منذ وقع نظر جين على الدوق عرفت فورا الى ايّ من الرجال ينتمي: رجل مهيب، وشخصية جذابة تبدو عليها كل علامات النبل والاصالة.ومع ذلك شعرت بأنها لا بدّ ان تتلقى صفعة على وجهها ان هي اطلعته على ما حدث.

لم تكن عينا الدوق تشبهان في شيء عيون ابناء امريكا اللاتينية، الحارة، الودية، المتسامحة. كانت تلمعان كعيني اسد متربص، وفي غطرسة وقحة اخذ يدور حول جين وينظر اليها من كل زاوية:

«تقول مدام ديسموند في رسالتها انك ابنة شقيقها ومديرة اعمالها. انك لا تشبهينها ولا تشبهين ابنتها. عيناك خضراوان لهما لون عشب البراري البعيدة.»

كانت جين تحدّق فيه ونبض قلبها يتلاحق. انه انسان غريب ورهيب فرض سيطرته عليها منذ النظرة الاولى:

«والآن يا عزيزتي. الا تريدين ان تتكلمي ام انك تفضلين ان اقرأ افكارك لأعرف سبب مجيئك؟ هذا ليس عسيراً على فتاة ساحرة مثلك.»

«صحيح! لا تنقصك الوقاحة»

« هل جئت الى هنا لتقولي لي هذا؟»

حدجته جين بنظرة خاطفة حابسة انفاسها، لا بد انه بدأ يدرك

الحقيقة. ولاحظ هو مدى تأثير كلماته عليها، وكأنه اراد ان يخضعها نهائيا. فاضاف:

«اجلسي قبل ان تنهاري فاضطرّ الى حملك. ماذا حدث؟ لماذا ترتجفين؟ الم تتناولي ايّ طعام طوال النهار...لم ار في حياتي وجهاً شاحباً مثل هذا الوجه ولا جسماً نحيلاً مثل هذا الجسم. هل تحبسك السيدة ديسموند ولا تدعك تخرجين الى النور؟ من انت كأنك لست من هذا العالم. كأنك آتية من كوكب آخر. لا اعرف شيئا عن سكانه.»

لم تعد جين تتحمل وبعصبية عفوية قالت

«انا قريبة السيدة ديسموند لكنني فقيرة. انا فتاة متواضعة كبرت وهي تلتقط من فضلات لارين...الكتب المهترئة، والدمى المحطمة، وحبات العقود المنثورة والاقلام المكسرة. وكأن ذلك لا يكفي، لأنني احاول الآن ان اقوم بالمهمة التي كان ينبغي ان تقوم بها ابنة عمتي الفاتنة».

فتحت جين حقيبة يدها واخرجت منها الصندوق الجلدي الاحمر وقدمته الى الدوق قائلة:

« لارين تعيد اليك هذا، سيدي الدوق. اكتشفت انها غير قادرة على الاستمرار في الخطوبة. وطلبت مني ابلاغك اسفها، فهي تحنّ الى وطنها ولا يمكنها ان تعيش معك في البرازيل. ارجوك ان تستعيد هذه المجوهرات، كلها هنا داخل الصندوق.»

القى الدوق نظرة باهتة الى الصندوق المزين غطاؤه بالتاج الدوقي وقال:

«ارجوك ان تضعي الصندوق على الطاولة.»

«انني آسفة. لم تكن لدى لارين الجرأة الكافية لتطلعك على قرارها

بنفسها.»

اجابها الدوق بلهجة جافة:

«يبدو انك اقدر منها، او انك وافقت على المجيء، نتيجة تهديدات العمة وخوفاً من فقدانك الوظيفة ان لم تنفذي مطالب اقاربك الأغنياء.»

«انا لست فخورة بما افعله، لكن لا بد ان يتولىّ احد امر اعلامك بفسخ الخطوبة.»

«جئت اذن تحملين اليّ النبأ وتخافين ان يتحطم قلبي؟»

«لا، قررت لارين فسخ الخطوبة لأنها شعرت بأنك تريد زواجاً يؤمن لك مصلحتك. انا متأكدة انك تفهم ماذا اقصد.»

«هل تريدين القول انني ما احببتها انما قصدت الزواج من اجل ابني فقط؟ ولم لا ، تريستاو بات جزءا من حياتي منذ ست سنوات، وانا اعرف ان الآنسة لارين ليست مستعدة للعيش مع هذا الولد غير القادر على الركض او اللهو مثل الآخرين.»

تصلّب وجهه وضغط بيديه على اصابعه واضاف:

«لعنة الله عليها، انها تشبه اللواتي لا يهمهن من الحياة سوى تذوق الطيبات غير ملتفتات الى الذين حكم عليهم القدر بأن يلتقطوا فتات الموائد. انني استغرب كيف ارجعت المجوهرات.»

نظرت اليه جين باستغراب ولمحت ابتسامة وقحة على شفتيه:

«تنظرين اليّ وكأن في عينيك سؤال كبير. هل تعتقدين انني احمق لأنني لم امتحن لارين قبل ان اختارها؟»

اجابت جين بهدوء:

«وهل كنت تمتحنها عندما ابلغتها بأنك تتزوج منها من اجل ابنك؟ لقد

كنت تتوقع ان تتجاوب معك لارين بسرعة وتوافق على عرضك، متصوراً انها كأي امرأة من بلادك يستبعد قلبها الحنان. لقد تصرفت لارين تصرفاً خاطئاً عندما تركتك وانا آسفة جداً.»

قرع الدوق الجرس وقال:

«قمت برحلة طويلة قبل ان تصلي الى هنا وتحدثت طويلا عن الهدف من زيارتك. حان لك ان تتناولي شيئاً. اتفضلين الشاي ام القهوة؟ اننا نزرع الاثنين معاً في البرازيل ولكل منهما قيمته..على فكرة، هل تعجبك البرازيل؟»

«لم تسنح لي مشاهدة الكثير من بلادك، لكنها تبدو غنية بالالوان.»

«تقصدين انها تختلف كثيراً عن انكلترا، اليس كذلك؟»

«ليس هناك ايّ تشابه.»

دخل الخادم الغرفة فطلب منه الدوق احضار القهوة والشاي وبعض الحلوى.

عضت جين على شفتها السفلى واستعادت ما قاله الدوق عن هزالها. ربما ظن انها في حاجة الى وجبة سريعة لئلا تموت جوعاً. نهضت جين وقالت:

«لا، لن ابقى للعشاء، امامي رحلة طويلة قبل ان اصل الى الفندق، استعداداً للسفر الى لندن لموافاة عمتي»

«لن يستغرق الامر اكثر من عشر دقائق. يجب ان تتذوقي القهوة البرازيلية.»

واشار الى مقعد قريب من جين وقال:

«ان سائقي السيارات في البرازيل مشهورون بالسرعة. وانا اؤكد لك انك لن تتأخري عن الطائرة. تفضلي بالجلوس يا آنسة، واريحي اعصابك.»

رمقته جين بنظرة حائرة. لا يبدو عليه التأثر من وقع الخبر. هل يحاول اخفاء مشاعره ارضاء لكبريائه، ام انه ما احب لارين بالفعل؟

«وبرغم انها كانت تفضل الذهاب للتحرر من سيطرته وجدت نفسها تلبي رغبته وتجلس في المقعد الذي اشار اليه. وهنا دخل الخادم يحمل صينية وضعها على الطاولة قرب جين، ثم انسحب تاركا لها مهمة الضيافة.

قال الدوق:

«سأتناول القهوة.»

«هل تريدها مع الحليب؟»

«لا انني افضل القهوة سوداء...سوداء مثل نفسي.»

سكبت جين القهوة السوداء في فنجان من الخزف الرقيق مزيّن بعصافير زرقاء صغيرة، ثم قدمته للدوق، واختارت لنفسها فنجان شاي مع الحليب.

«انصحك بأن تأكلي قطعة او قطعتين من الحلوى. انا متأكد انك جائعة، لأن الوقت لم يسمح لك بأن تأكلي ما فيه الكفاية عند الظهر، الست محقاً يا آنسة؟»

«نعم انت على حق.»

راحت جين تفكر وهي تحتسي الشاي الطيب الطعم: الرجل الذي امامها ينتمي الى طبقة اجتماعية رفيعة. انه متعال واثق من نفسه،

وربما اناني. قد لا يتركها تذهب بسهولة بعدما اطلعته على النبأ. موقفه اللامبالي ربما كان يخفي وراءه شيئاً...

فجأة قطع عليها الدوق حبل تأملاتها وقال في صوت رقيق:

«منذ متى جئت الى البرازيل يا آنسة؟»

«منذ يومين فقط. جئت كي...»

توقفت عن الكلام والقت نظرة سريعة على وجهه المرتعش ثم اضافت:

«اني آسفة لأن الزواج لن يتم، ولأن ابنك لن يجد له اماً.»

«وانا لن...»

رفع حاجبيه وقد بدت على وجهه علامات السخرية واضاف:

«ابنة عمك فتاة جذابة حقاً، ولا شك انك تفهمين ماذا يعني للرجل ان يفقد فجأة الشيء الذي كان حتى الامس القريب حلمه الاكبر.»

«لكنك قلت: لعنة الله عليها.»

«هذا صحيح يا آنسة. لكنني اعترف بأنني مسؤول نوعا ما عن خسارة لارين. لم استطع ان اقول لها اريدك ان تعيشي معي كي تكوني رفيقة لأبني. لكنني اعتقد انني استطيع ان اطرح هذا السؤال عليك يا آنسة جين داير.»

كان صوته واضحاً وكذلك كلماته مما جعل جين حائرة لا تفهم بالفعل ماذا يقصد. تعرف جين ان الناس في اميركا اللاتينية حريصون على مبادئهم. وشعرت بنوع من الاطمئنان لأن احداً لا يمكن ان يصدق ان الدوق يحب امرأة مثلها، دميمة وهزيلة. اغمضت عينيها وتساءلت: امن اجل هذا يطلب مني ان اصبح رفيقة لأبنه وليس له؟

٣ـ طفولة في المرآة

وضعت جين فنجان الشاي جانباً وقالت:

«شكراً لهذا العرض يا سيدي الدوق، لكنني سعيدة جداً في عملي.»

«سعيدة؟ انت الفتاة الفقيرة التي تعيش من اجل عمتها وابنة عمتها الطائشة، المدللة، الانانية. انا اعرف انها كانت تريد ان تتزوج مني لتصبح دوقة. التقيتها في البرتغال عند بعض الاصدقاء، وكان تريستاو معي، كانت بالفعل امرأة متألقة جذابة. حتى تريستاو اعجب بها كثيراً وخيّل اليّ انها ستكون الزوجة المناسبة.»

توقف الدوق لحظة عن الكلام ثم هز كتفيه وقال:

«ارى ان فكرة العمل عندي لم تعجبك. كنت اظن انك تريدين التخلص من الحياة التافهة التي تعيشينها مع عمتك وابنتها. ارى انك تستغربين ما اقول. هل اسأت اليك يا آنسة؟»

«نعم، قد لا احب احيانا العمل الذي اقوم به، الا انني لا استسلم لعرض عابر مهما كانت قيمته.»

«انا اتيح لك فرصة العيش في اجل منزل على الشاطىء، وبرفقة صبي صغير لن يزعجك ابداً. فهو لا يركض ولا يلهو مثل الذين هم في سنه. الا تحبين الاولاد يا آنسة؟»

«انا انسانة..واحب الاطفال، لكنني في الوقت نفسه اسيرة ظروف تجعلني مشدودة الى اقاربي. مع ذلك اجد من الصعب ان انجذب الى الخارج، وان كانت فيه بالنسبة اليّ فرصة العمر. ارجو ان تعذرني يا سيدي الدوق. برغم كونك خطيب ابنة عمتي فانت مجهول بالنسبة اليّ، اليس هذا صحيحاً؟»

تجاهل الدوق الجواب وألقت جين نظرة نحو الباب الذي قد يعبر بها الى الحرية وقالت:

«اعتقد ان الوقت حان للرحيل سيدي الدوق. سبق واطلعتك على موعد سفري.»

اجابها بحزم:

«لا تسافري. حان لك أن تبدأي حياتك يا جين داير. حان لك ان تمارسي التحدي. كنت اظن انك انسانة شجاعة عندما وافقت على ان تتولي ابلاغي النبأ. أرى الآن ان شجاعتك تنهار أمام العرض الذي قدمته اليك والذي يتيح لك أن تعيشي حياتك.»

ابتعد عنها قليلاً وكأنه يحاول ان يبرهن عن لامبالاته وقال:

«عودي الى آل ديسموند، يبدو انك تحبين ان تعيشي على الهامش.»

«على الهامش.»

كان في ود جين ان تصفع هذا الوجه الاسمر القاسي، ان تجعل هذا الرجل المتعالي يعرف قسوة العذاب الذي تعاني منه كل يوم، كل ليلة، بل كل دقيقة، بسبب الآخرين:

«هل تظن انني سأكون انسانة مختلفة اذا عملت عندك؟»

«بل على العكس يا آنستي، انك كرفيقة لأبنتي ستعرفين معنى المسؤولية التي لم تمارسيها حتى الآن. تريستار صبي شجاع

والمطلوب منك السهر عليه والاهتمام به والمحافظة على راحته وسعادته. وهذا المركز افضل بكثير من مهنة السكرتيرة او الخادمة التي تقوم بأي عمل يطلب منها. اضافة الى ذلك سيكون راتبك محترماً. وسأخصص لك جناحاً خاصاً في القصر الذهبي. هل هذا واضح يا آنسة

«نعم انه واضح. ولكن الا تعتقد انك تتسرّع بعض الشيء. انت لا تعرف عني شيئاً سوى انني قريبة لارين. صحيح انني لا اشبهها شكلاً، لكن قد اكون انانية مثلها، وبالتالي قد لا استطيع تحمل مسؤولية رعاية ابنك ووريثك.»

«هذا صحيح...»

قال ذلك وتقدم منها وقبل ان تتمكن من الابتعاد كان قد امسك بذقنها ورفع وجهها وراح يتفحصها بنظرات لا تخلو من القسوة ثم حدق في عينيها فارتعشت واجتاحها احساس غريب ينتابها للمرة الاولى:

«تذكرينني بتلك الحورية المخلصة التي عرفتها يوماً. انك ترفضين باستمرار ان تظهري شخصيتك الحقيقية. عند آل ديسموند يمكنك ان تقومي بأي خدمة يطلبونها من دون ان تهبي قلبك. لكن مع ولد من عمر ابني كل شيء يختلف. انت تخافين الحب، اليس كذلك؟»

«ليس هذا من شأنك.»

حاولت ان تتملص منه او على الاقل ان تبعد نظرها عنه، لكنه كان يمسك بها بقوة:

«انسانة مثلي بعيدة جداً عن الوقوع فريسة الحب.»

«هل تسمحين بأن اسألك عن السبب؟»

«اعتقد انك تراني الآن في وضوح، وهذا يجعلك قادرا على اكتشاف

السبب.»

«هل تعنين انك لست جميلة؟»

«قالت لي ابنة عمتي لارين ذات يوم انني بطة بشعة.»

«اعتقد انك كنت لا تزالين طفلة عندما قالت لك ذلك؟»

«كنت اعرف انها تقول الحقيقة. انها ممثلة. وفي المنزل عدة مرايا يا سيدي.»

«يا لك من غبية. لقد ارتضيت لنفسك هذا النعت وانغلقت على نفسك وصرت اسيرة تلك الصورة. ثم هل من الضروري ان تكون مربية ابني عارضة ازياء؟»

«انت قلت ان ابنك اعجب بلارين.»

«هل تخشين ألاّ تنالي اعجاب تريستاو؟»

«اتوقع ان يخيب امله عندما يراني وهو الذي يفضّل ان تكون له ام جميلة.»

«لماذا لا تجربي الامر بنفسك وتنتظري ردة فعله؟»

«أفضّل ألاّ أفعل.»

ابتعد الدوق قليلاً عن جين وقال:

«هل انت مضطرة حقاً الى العودة على الفور الى لندن؟»

«حجزت مكاناً لرحلة منتصف الليل.»

«يمكن الغاء الحجز وارسال برقية الى عمتك تقولين فيها انك مريضة وان الطبيب نصحك بالبقاء في بورتو دي زاتو اسبوعاً آخر. هل معك ما يكفي من المال؟»

«لدي مبلغ صغير. مادج سددت حساب الفندق حتى هذا المساء.»

«انه تصرف احمق من جانبك ان ترضخي لهذا الوضع.»

«لا تنسي ان عمتي كانت ستصبح حماتك.»

«وانت لا تنسي انني لست مثل الانكليز هادئاً ومتسامحاً. لقد نبّهت لارين انني ارفض تدخل امها في شؤوننا. في اي حال انتهى كل شيء. يجب الآن ان ترتب لقاء مع تريستاو. لا بأس اذا بقيت اسبوعاً آخر هنا ، وسأتولى دفع نفقات الاقامة في الفندق. عديني بأنك توافقين على المجيء الى الصقر الذهبي، اذا كان لقاؤك مع ابني ناجحاً.

شعرت جين برهبة امام هذا الموقف. وبرغم انها لم تستلطف الدوق لكنها تشعر برغبة في التخلص من سيطرة مادج وابنتها عليها.

«لماذا ترددين؟ الم يعجبك عرضي؟»

«اريد ان اجتمع بابنك يا سيدي لكنني لا استطيع ان اقبل بأن تدفع عني حساب الفندق اذا بقيت اسبوعاً آخر.لا.»

«لا بأس ، لن ادفع حساب الفندق شيكاً. فقد يؤدي ذلك الى اقاويل وشائعات نحن في غنى عنها. سأعطيك المال نقداً واعتبريه دفعة من راتبك اذا وافقت على العمل معي. هل هذا يريحك؟»

اخفضت جين عينيها ولم تجب.

«انصحك يا آنسة بأن تشربي الشاي قبل ان تعودي الى الفندق.»

«السائق في انتظاري.»

لا تهتمي بالسائق. فهو يتناول المرطبات ويأخذ قسطاً من الراحة. سأتركك لحظة لأكتب رسالة سريعة. ارجو ان تأكلي الحلوى.»

انسحب الدوق واغلق الباب خلفه وظلت جين تحدق بالباب كأنها ماتزال تلمح شبح الدوق يتخايل على الخشب اللماع.

جلست في مقعدها وراحت تفكر: هل من المعقول ان يتمكن رجل مجهول في اقل من ساعة من احداث انقلاب في حياتها. شعرت بجفاف

في فمها فسكبت مزيداً من الشاي. كانت الشمس تتسرب من النوافذ وينعكس نورها المرتجف على ابريق الشاي الفضي.

من الجنون الاقدام على ما يطلبه الدوق. فهي لا تعرف شيئاً عن تربية الاولاد. لقد امضت حياتها تلبي اوامر عمتها من دون ان يفسح لها في المجال لتناقش او حتى لتسأل، والا وجدت نفسها على قارعة الطريق.

وبصورة عفوية التهمت جين قطعة من الحلوى ثم اغمضت عينيها وراحت تتخيل ردة فعل مادج بعد ان تعلم بأن جين ستتركها لتعمل عند الدوق.

تمشت جين في الغرفة ثم اقتربت من النوافذ العالية وراحت تتأمل اشجار النخيل الكثيفة. لكن تأملاتها لم تطل فقد دخل الدوق فجأة مرتدياً بذلة رمادية انيقة وقد بدا اقل عنفاً وعجرفة. قال:

«الشمس اوشكت على الغروب، اعتقد بأنك تريدين الانصراف. سأتصل بك غداً في الفندق لاطلعك على موعد اللقاء بأبني. هل انت راضية؟»

«لا استطيع ان اقول انني راضية، لكنني اعتبر ان ما تطلبه مني مهم للغاية، ويمكن اعتباره بمثابة انقلاب كامل في حياتي.»

«هل ستتولين انت الابراق الى عمتك، ام تريدينني ان اقوم بذلك.»

«لا، شكراً. سأهتم بالأمر عندما تأتيني دفعة من الشجاعة.»

«انت شجاعة ربما اكثر مما تعتقدين. سأوصلك الى السيارة واودعك.»

تبعته جين بهدوء وهي تشعر بوطأة عينيه الساحرتين عليها، وبهذا التسلط الغريب الذي بدأ يمارسه نحوها منذ اللحظة الاولى، وبدأت تدرك كم هو صعب على امرأة الصمود امام رجل قادر على ان

يجعلها تشعر بأنوثتها.

وفي شيء من اللامبالاة توقف الدوق مفسحاً في المجال لجين لكي تمر امامه في الممر الطويل الذي بدا مظلماً بعد غياب الشمس.

وعندما وصلت جين الى السيارة قال لها الدوق:

«الى اللقاء، يا آنستي. ارسلي البرقية وانتظري اتصالي الهاتفي.»

انطلقت السيارة بجين وبقي الدوق واقفاً على سلم الفيلا حتى غابت السيارة عن الانظار. استرخت جين في مقعد السيارة الخلفي وراحت تستعيد وقائع هذا اليوم الحافل.

خيم الظلام على المدينة وبدأت اضواء المرفأ تلمع على صفحة الماء عندما دخلت جين الفندق. توجهت الى مكتب الاستقبال وابلغت الموظف انها لن تسافر وانها تود الاحتفاظ بغرفتها حتى آخر الاسبوع. كما طلبت الغاء الحجز. ثم كتبت برقية الى عمتها قالت فيها:

«احتاج الى عطلة تمتد اسبوعاً. كل شيء تم كما اتفقنا. قولي للارين ان تطمئن.»

توجهت جين الى غرفتها والقت بدنها على السرير، ثم خلعت حذاءها وراحت تؤدي رقصة الهنود الحمر على السجادة السميكة! فلاول مرة تتحدى مادج، وهي المرة الاولى كذلك التي تتمرد فيها بتحريض من رجل. وأي رجل! انه سيد مجتمع، ثري وجذاب، يعرف كيف يخضع المرأة وكيف يجذبها اليه، ان هي اعجبته او يتخلى عنها اذا لم تكن في مستوى تطلعاته.

كانت جين متأكدة من ان برقيتها ستغضب مادج وكذلك لارين التي كانت تظن ان الدوق سيهرع اليها متوسلاً ان تعود. ولكن للمرة الاولى في حياتها ستصاب هذه الفتاة الطائشة بخيبة

الامل.

نظرت جين الى ساعتها ووجدت ان وقت العشاء بات قريباً. عليها اذن ان تهيء نفسها ولن تتضايق ان هي تناولت العشاء وحدها. فقد اعتادت على ذلك بسبب رحلات مادج المتعددة.

اخذت جين حماماً ساخناً وارتدت فستاناً بسيطاً ثم نزلت الى مطعم الفندق وجلست وراء مائدة في احدى زوايا المطعم. فهي لا تهتم بأن تلفت اهتمام الآخرين. لكنها تساءلت: كيف يكون شعور المرأة التي تتناول طعام العشاء مع الدوق بيدرو. واجابت نفسها: ستجد ان الجميع يعاملونه وكأنه سلطان زمانه ويعاملون رفيقته كأنها سيدة النبلاء.

وفي اليوم التالي انتظرت جين بفارغ صبر اتصالاً هاتفياً من الدوق، كما وعد، لكن بدون جدوى. وكانت قد امضت النهار جالسة في شرفة غرفتها تتأمل الشاطىء وتستعيد كل ما حدث لها منذ ان جاءت الى البرازيل الى ان وافقت على العمل عند الدوق.

ولم تشعر الاّ وقد حلّ الظلام فراحت تتساءل: هل غيّر الدوق رأيه. في اي حال اذا لم يتصل بي غداً سأعود الى لندن.

عندما استيقظت في اليوم التالي بعد ليلة مضطربة هالها مجرد الشعور بأنها لن تستطيع مواجهة الوضع الحرج الذي وجدت نفسها فيه، ولاحظت ان كل ما تملكه من مال يكفيها لقضاء يوم واحد في الفندق.

بعد ان تناولت فطور الصباح في شرفة غرفتها، قررت ان تذهب لتتمشى قرب المرفأ ثم تتوجه الى الشاطىء لتستريح على الرمال الناعمة. ارتدت ملابس السباحة بسرعة ووضعت منشفة في حقيبتها.

ثم وقفت امام المرآة تتأمل نفسها: انها تشبه مراهقاً لا تزال البراءة في عينيه. اخذت صور الماضي تمرّ في خيالها. لم تعرف يوماً كيف يكون الحنان وماذا تعني المحبة. كانت وهي طفلة تشعر بالتعاسة وتبكي وحيدة، لا من يواسي او يعزي او يتجاوب مع احلام الطفولة.

وتذكرت كلمات لأدغار آلانبو:

«منذ طفولتي لم اكن حيث كانوا ولم ار ما كانوا يرون.»

٤ـ الطريق الى تريستاو

كانت جين سعيدة وهي تتمشى وحدها في هذا المناخ الدافىء. راحت تتسكع في الشارع الرئيسي وتتأمل بأعجاب البضائع العديدة الملونة الموضوعة في واجهات المحلات: الحجارة النادرة والمداليات المرصعة. ولفت نظرها صندوق مجوهرات من درع السلحفات، ومزين بالياقوت الاصفر.

ثم راحت تمشي في الشوارع المؤدية الى اماكن لا يمكن وصفها، حيث تنتصب شجيرات النخيل هنا وهناك، وشلالات من النباتات الملونة المزروعة في اوان فخارية تتدلى من شرفات البيوت.

جلست جين على احد الحواجز البحرية واخذت تلتهم السمكة التي اشترتها من صيّاد بدا لها وكأنه احد القراصنة. واخذت تتأمل البحارة يفرغون ما في زوارقهم من اسماك مختلفة الانواع والاحجام.

لاحظت جين امرأة عجوزاً تبيع الفاكهة، فذهبت اليها وابتاعت فاكهة تحبها لتتناولها بعد الغداء.

وفجأة شاهدت ولداً يعبر الطريق المتعرجة بسرعة قصوى ساعياً وراء كرة حمراء، واذ بسيارة فخمة تتقدم من غير ان يرى سائقها الصبي.

وهنا رمت جين فاكهتها وهرعت نحو الصبي وانتشلته من حيث كان عرضة لأن تلطمه السيارة. ثم سمعت الصوت العنيف الذي يحدثه كبح العجلات فجأة.

خرج من السيارة رجل طويل القامة وقال بغضب:

«ماذا تفعلين هنا؟»

فوجئت جين بصوت الشخص الذي يكلمها فالتفتت واذا به الدوق بيدرو.

تمالكت اعصابها وقالت:

«خشيت ان يحصل مكروه للولد. كان يطارد الكرة ولم ير سيارتك.»

كان الولد يبكي ويصرخ محاولاً التخلص من قبضة جين والالتحاق بجدته التي كانت تركض نحوه محاولة اختراق الجمهور المحتشد وسط الطريق.

تجمع المارة حول جين وراحوا يربتون على كتفها مهنئين اياها على شجاعتها. وسمعت بعضهم يشرح للدوق ما حصل ويقولون:

«هذا الفتى السائح انقذ الولد.»

هذا الفتى؟ وتطلع الدوق الى جين التي ظنها المارة فتى ولاحظ مدى التغيير الذي اعتراها في يوم واحد. ودعاها الى سيارته الرمادية، وادار المحرك وانطلق.

قال الدوق:

«لم اكن اتصور ان يكون لقاءنا الثاني مأساوياً كالاول. بماذا شعرت عندما ظنك الآخرون صبياً شجاعاً؟»

«لا اعرف بالضبط. المهم انني ساعدت هذا الصبي وانقذته من الموت.»

«والآن، اما زلت تعتبرين نفسك جبانة؟»

«الشجاعة او الجبن غير مرهونين في حادث معين. كلاهما موجود في مكان ما داخل الانسان.»

اوقف الدوق سيارته امام احد المطاعم وقال هامساً:

«هل تناولت طعام الغداء؟»

«اكلت سمكاً وفاكهة وكان الغداء لذيذاً.»

«لا اظن ان هذه الوجبة تكفي لفتاة مراهقة تحتاج الى كمية من الطعام تساعدها على النمو.»

«انا في الثانية والعشرين من عمري يا سيدي الدوق!»

«اعرف انك مازلت شابة. ليس هذا هو المهم. هل تحبين تناول طعام الغداء معي؟»

«لا أظن انني استطيع مرافقتك في هذه الثياب. فقد لا اكون الرفيقة المناسبة.»

«لماذا ذهبت تتنزهين بدلا من ان تنتظري مكالمتي الهاتفية؟ اتصلت بك عند الساعة التاسعة والنصف صباح اليوم فقيل لي انك ذهبت الى الشاطئ.»

« اتصالك بي كان محددا ليوم امس، وقد امضيت النهار كله انتظره. ولم اخرج الا اليوم وفي نيتي ان اسبح، حتى شاهدت هذا الصبي يتعرض للموت، وركضت وراءه.»

«لم استطع الاتصال بك امس، فقد انهمكت في قضية طارئة. لننسى ما حصل وتعالي نتناول طعام الغداء.»

كانت جين تنظر اليه بعينين واسعتين مدهوشتين. فقد كان مصمماً على مكالمتها كما وعدها. وقال:

«هل كنت تفضلين ان تكوني رجلا بدلا من امرأة؟»

اجابت وهي ترفع كتفيها:

«ربما ، من الافضل لليتيم ان يكون صبياً.»

«هل تعتقدين ان الرجال اكثر الناس قساوة، واقلهم حساسية؟»

بدأت ملامحه تأخذ تعبيراً غريباً وهو ينظر اليها.

«نعم. ينقصك معرفة الكثير من الاشياء، يا فتاتي. واول شيء هو الا تتحسري على انوثتك. فذات يوم سيأتي رجل يبدي سعادته بأنك امرأة.»

«صحيح ؟قالت لي مادج مرة ان احد اصدقائها قال عني اني اشبه الجنية. انها كائن خرافي في بلادنا، نسمع بها ولا نراها ابدا، وتقوم بمهمات غير حسنة!»

«اذن انت خرافة ولست حقيقة!»

وشدّ الدوق بيده على كتفيها، ولم تقدر جين ان تتخلص من يده وقال:

«انت انسانة تحس كأنسانة حقيقة...أوه، انك ترتجفين. الا تحبين ان يلمسك احد؟ هل تشعرين باحساس جديد لم تشعري به من قبل؟»

«بطبيعة الحال لأن احدا لم يلاحظني من قبل.»

قاطعها الدوق قائلا:

«هيا نتناول بعض الطعام، ثم نذهب ونقابل تريستاو.»

«اليوم؟»

«اليوم بالذات. انه موجود عند احدى صديقاتي، سنقوم بزيارة بسيطة ولن تقول لأحد انه من الممكن ان تصبحي رفيقة تريستاو. لا يجب ان يشعر بخيبة الامل مرّة ثانية، اليس كذلك؟»

«بالطبع.»

نزلت جين من السيارة وانتظرت الدوق امام مدخل المطعم الذي كان يدعى «الوردة السوداء» بينما كان يوقف سيارته. وتبين لها كم تود ان تحصل على هذه الوظيفة.

«انا سعيد، يا انسة دايرٍ، لمعرفتي بأنك ستخاطرين بحياتك من اجل ولد مجهول. ربما سمعت عن الحالة السياسية التي تهدد بعض المناطق في البرازيل. ليست كما يجب ان تكون، وانا غير موافق على الحكم الحالي. اذا عملت عندي...»

«افهم يا سيدي. اني اعدك ان اهتم بابنك كل الاهتمام. هذا اذا اعجبته. لأنني اسأل نفسي ان كان سيقبلني تريستاو.»

«وانا ايضا اتسأل، يا آنسة. لكنني اقول لك مرة اخرى ان تقلعي عن عادة التقليل من قيمتك. لاشك انك كبرت وتداخلت الرغبة في التشبه بابنة عمتك. لكن كوني متأكدة انك لو كنت تشبهينها، لما كنت الآن معي في هذه اللحظة.»

«هل تكرهها الى هذا الحد؟»

«لا يمكن لأحد ان يكره انساناً لم يحبه من قبل.»

القت جين نظرة خاطفة على الدوق بينما كانا يدخلان الفندق.

المكيف الهوائي يدور في سقف المطعم والخدم يرتدون المريول الابيض ويحملون الصواني مسرعين. تغمر الجو رائحة ذكية تفوح منها نكهة التوابل. وامتدت الفاكهة الموسمية المحلية على طاولة كبيرة في عرض المطعم.

اسرع صاحب «الوردة السوداء» لمقابلة الدوق، معبراً عن سعادته بقدومه الى مطعمه. واجلسهما امام مائدة على انفراد قرب احدى

النوافذ. وبحركة من اصابعه، اصدر اوامره لأحد الخدم ان يهتم بطاولة الدوق ومعرفة ما يريد من شراب وطعام.

«هذا شرف، يا سعادة الدوق.»

انحنى الرجل امام الدوق للمرة الثانية. ولم يتوقف عن التأمل بعينيه السوداوين اليقظتين، قامة رفيقة الدوق النحيلة.

حجبت جين الابتسامة عن وجهها. لا بد انها تبدو غريبة عجيبة الى جانب «بيدرو دي زانتو» البالغ الاناقة. وكان بعض الزبائن ينظرون اليهم في حشرية بدون مواربة. لكن الدوق لم ينتبه لما يجري حوله لأنه كان يتفحص لائحة الطعام والشراب. هو الذي يعرف تذوق الطعام الجيد. وطلب طبقين من المقبلات الباردة والساخنة، يليها طبقان من لحم البقر المطبوخ مع البصل، البطاطا والبازلاء.

«ماذا تحبين ان تشربي. الطقس حار والليموناضة منعشة، ما رأيك؟»

وافقت جين على اخذ الليموناضة، اذ كانت شديدة العطش. لأول مرة في حياتها، كانت جين مصدر اهتمام رجل يتمتع بهذه القدرة. انها ولا شك تجربة مزعجة ان تلحظ الغيرة في عيون النساء من حولها، حتى ولو كان الحسد مقروناً بالدهشة.

تقدمت طاولة المقبلات امام مائدة الدوق، واخذت جين تختار بمتعة ما تحب انه شيء جديد بالنسبة اليها.

سكبت الليموناضة في كأسها، وشربت جرعة سريعة لتشفي ظمأها. ثم انتبهت ان عليها انتظار الدوق الذي قال وهو يبتسم ابتسامة سريعة تظهر بياض اسنانه الناصعة:

«هيا... هل سأتولى تعليمك التصرف بلياقة؟»

«نعم، هذا لا يزعجني. اني اشكرك على اهتمامك بي وأنا ما زلت

متعجبة لأنك لم تطردني يوم جئت بخبر فسخ الخطوبة. عندما افكر بذلك من جديد أ...»

قاطعها قائلا:

«لا تنظري الى الوراء. ابداً البارحة يوم مضى، كشمعة اطفأتها الريح. من الافضل ان تفكري في المستقبل. اشربي وكلي يا آنسة.

اطاعته جين وهي تفكر بملاحظته الاخيرة.. هل احبَّ ابنه لأنه احب والدة الصبي كثيراً؟ ولماذا اذاً لم يتزوجها؟ ماذا جرى حتى ولد تريستاو خارج الزواج؟ كانت جين محتارة، فهي لم تعد تعتبر ان بيدرو دي زانتو الطاح بقلب امرأة ثم تبنىّ ابنها تعويضاً عما حصل. لا، هناك شيء آخر وراء هذه القصة.. ولم تكن جين بريئة لدرجة تجهل معها انها فعلاً على وشك ان تقع في الهوى لأول مرة في حياتها. وقبل ان يحتل الحب قلبها قررت مغادرة بورتو دي زانتو في اليوم نفسه. ستذهب لرؤية ابن بيدرو كما وعدت، ثم تشرح للدوق انه عليها العودة الى عملها مع مادج وانها تأسف لعدم قدرتها على البقاء.

«اذاً، يبدو انك زرت المدينة، هذا الصباح؟»

انتفضت جين، وهي تسمع صوت الدوق الحاد الجذاب يسحبها فجأة من تفكيرها. نظرت اليه واستشعرت الشفقة في عينيه. ارتجف قلبها. اترى لاحظ ما يجري؟ لاشيء يذهلها الأ اذا اكتشف

«ماذا حصل؟ هل انت خائفة؟»

«لا. بل افكر بعمتي.. عذراً.»

ابتسم ابتسامة سريعة وقال:

«تشجعي، الطعام حاضر وارجوك ان تتذوقي هذا اللحم الطري

واعطني رأيك فيما بعد.»

كان اللحم لذيذ الطعم مع البصل المقلي.ولأول مرة تتذوق جين البطاطا المصحوبة بالبازلاء، والمطبوخة في صالصة البهار.

وبينما كانا يتناولان الطعام ويشربان القهوة السوداء، اخذ الدوق يكلمها عن بورتو دي زانتو. واخبرها انه من سلالة الدوق بيدرو الذي كان احب راهبة من اللواتي اختطفهن القراصنة. وكانت فديتهن حجارة كريمة.

«هذه القصة العاطفية تحمسك. اليس كذلك؟ لا شك انك تفكرين بمصير هذا الدوق الطاغي الذي عشق تلك الراهبة الرقيقة. ولا بدّ ان هذه القصة تبدو شيئاً لا يصدق او خرافة. انما هي بالفعل قصة واقعية. فقد حرر الدوق حبيبته لكنها لم تترك سلك الرهبنة. فتزوج امرأة اخرى وورثت عائلتها امواله الطائلة. وكانت ممتلكاته تمتد حتى شواطىء الامازون.»

توقف الدوق عن الكلام واضعا يده على وجهه مظهراً خاتم ذهب حفر عليه الصقر الذهبي. لا بدّ انه خاتم مصنوع على يد جوهري من العصر القديم.

ثم عاد واكمل:

«واليوم، الحياة اقسى لأن الانسان يعتقد انه اكثر تمدناً.»

ثم اضاف:

«الآن وقد تناولنا طعام الغداء، سنذهب لزيارة صديقة لي، السيدة فيليسيا دي ايفانجيل، التي عالجت شقيقتي قبل ان تتزوج من كاسترو دي ايفانجيل، الشاعر المجهول. هي وكاسترو لم ينجبا اولاداً. وفيليسيا تحب رفقة تريستاو وهو لا يحب البقاء وحده في

فيللا الصخرة. وهكذا كلما اجيء الى الساحل، لأقوم ببعض الاعمال، أتي به لزيارة فيليبا. وانت هل اعجبتك فيللا الصخرة؟»

قالت جين معترفة، لكنها كانت مهتمة بكل ما قاله الدوق عن صديقته فيليبا:

«نعم. بالفعل ان هذا المنزل يستحق اسمه، مما جعل مادج تدعوه حصناً.»

«آه، صحيح؟»

تلألأت عينا الدوق وقال:

«لا بد ان عمتك فكرت بأنني سأعامل ابنتها الجميلة كجنية.. سيكون ممتعاً للغاية اذا جئت وعملت عندي اليس كذلك؟»

اجابت جين بحزن:

«وستغضب عمتي غضباً ساخطاً حتى انها بدون شك لن تتعرف عليّ. فبعد الذي حدث، لست ادري اذا كنت اتصرف بتعقل و...»

وسألها بنظرة تهكمية:

«وهل من الحكمة ان تظلي ضحية انسانة طاغية؟ وهل تخشين ان اكون اكثر استبداداً منها؟»

نظرت جين اليه بعينيها البريئتين ورأت على وجهه كل السحر.. وانتابها الذعر.

«اكون حمقاء لو اعتبرتك انساناً سهل الطباع يا سيدي، على كل حال فلا اعتقد انك تحتمل الاغبياء.»

اعترف قائلاً:

«لا، حتى ولو انني اراك تتصرفين ببعض الغباء، اذ وضعت كل اخلاصك في عمتك وابنتها، كما انني في الوقت نفسه، لا اعتبرك امرأة

طائشة غير قادرة على التكيّف مع عادات البلد، او مع القوانين التي يجب مراعاتها داخل منزلي.»

اشار بيده الى صاحب الفندق ثم دفع الحساب.

وخرج الدوق مع جين من المطعم و نظرات الزبائن الفضوليين تتبعهما حتى غابا عن النظر. لا احد من الذين يعرفون الدوق تجرأ على محادثته، وهو يمر قرب الطاولات رافعاً رأسه.

كانت الحرارة في الخارج قد ارتفعت بعض الشيء، لكن مكيف الهواء داخل السيارة كان يعمل بصورة مستمرة، حتى وهما يتناولان الغداء داخل المطعم. ولما دخلا السيارة شعرت جين ببرودة الجو وانتعاشه. وبدأ قلبها يتسارع بالخفقان عندما ادار بيدرو المحرك واتجه بالسيارة نحو الطريق.

كانت السيارة قد اجتازت حوالى كيلومترين عندما كف الدوق عن صمته فجأة وسأل جين:

«هل انت متوترة؟»

«قليلاً.»

«ليس شيئاً مزعجاً ان تتعرفي الى ابني... اعتقد ان لارين اخبرتك من قبل انني لم اتزوج احداً من قبل، وان تريستاو ابن غير شرعي، ربما ازعجك ذلك، انت الفتاة المحافظة...»

«اذا اردت ان تعني بذلك انني حاقدة على الولد بسبب علاقة والده، أؤكد لك ان ذلك خطأ. انني فقط اخشى خيبة امله عندما يراني، هو الذي تعرّف الى لارين واعجبه شكلها. اعرف تماماً اني لست جميلة. وكون تريستاو ابنك، سيدي، فلا شك انه ورث عنك ما تحب او لا تحب.»

«انه بالتأكيد من آل زانتو، لكن، هل سبق واظهرت لك انك لا تعجبينني؟»

«سأقوم بالعمل عندك ولذلك فلا انتظر منك ان تشعر تجاهي بعاطفة شخصية. يكفي ان تراني كفوءة وتثق بي.»

«لا يمكن لأحد ان يشك بأنك تحاولين الاغراء يا آنسة... أتعرفين ان ذلك يحيّر الرجل عندما يجد نفسه فجأة امام فتاة شابة لم تقم حتى الآن بأي مغامرة عاطفية. لا شك ان الاشياء المنيعة جذابة مثل الحديقة المسيجة... او النبع تحت الارض... او عين ماء مغلقة. الا تعرفين نشيد سليمان؟»

«ربما قرأته ذات يوم.»

وشعرت جين بانزعاج لم تعرفه من قبل. وبدأت تتساءل ان كانت براءتها ستوقظ الذئب في الدوق.

قالت بتعجب وهي تشير بيدها:

«آه، انظر! أليس هذا رائعاً؟»

ادار نظره نحو الكنيسة الواقعة على سفح الجبل. جدرانها بيضاء، وبرجها العالي الضيق، ترتفع هنا، على حدة، بسلام. انها صور ستبقى محفورة في ذاكرة الفتاة.

قال الدوق موشوشاً:

«انها كنيسة دير اليمامة النائحة. جرى تدمير البناء القديم وحرقه منذ القدم، وبنيت هذه الكنيسة من جديد، في المكان نفسه.»

«لا شك في جمالها.»

اجاب بصوت جاف:

«نعم. هل تجذبك الاجراس، الصلاة وحياة الرهبنة؟ اذاً، لا بدّ ان

تصبحي صديقة لأختي التي دخلت الدير في البرتغال، منذ بضع سنوات انها شقيقتي الوحيدة. واختارت هذا النوع من الحياة بعدما قتل خطيبها في البيرو. كان عالم آثار ولقي مصرعه خلال التنقيب حيث تهدم حائط عليه.»

بعدما انهى الدوق كلامه، وصلت السيارة الى باب حديدي تابع لمنزل خاص. انه بيت صديقته، السيدة فيليسيا دي ايفانجيل. وبدت الحديقة، المزينة بشتى انواع الزهر وبتماثيل الرخام، كأنها استقبال احتفالي.

توقفت السيارة قرب السلالم التي تؤدي الى المنزل ذي الحجارة الزهرية اللون.

وكانت النوافذ العالية تعطي جواً شرقياً وباب المدخل مزخرفاً وجميلاً.

هذا المكان الملئ بالسحر، يسيطر عليه الهدوء والسكينة. وشعرت جين كأنها موجودة في قلب البرتغال.

التقت عيناه بعينيها وبدا على وجه الدوق ابتسامة شاحبة.

«اشعر انك ترتجفين بعض الشيء. اني لا اتذكر انك ارتجفت هكذا في لقائنا الاول.»

«هذا مختلف تماماً. فلم اذهب يومئذ الى منزلك تحت طائلة القبول او الرفض.»

«معك حق. كنت تتوقعين مني الغضب وهذا من السهل التغلب عليه. اما الآن فعليك مواجهة ولد متقلب الاطوار. وها ان الوقت قد حان!»

٥ـ حيث تلتقي الغابة بالادغال

كان الجو منعشاً ومضيافاً داخل البهو الواسع. وباقات الزهر موضوعة في المزهريات تتصدر الطاولات والرفوف. وفي وسط المدخل درج حجارته من الخزف الليلكي المصنوع في البرتغال، وقد رسمت عليه المناظر الطبيعية والاشخاص. كانت جين تنظر باعجاب الى هذا الاثاث الانيق، عندما جاءت خادمة شابة تقودها الى رواق ذي قناطر يتصل بالدار، حيث النباتات المزهرة تسلقت الجدران.

الفراشات والزنابير تحلق بين الشجيرات. وهنا وهناك المقاعد الحديدية المسبوكة والمطلية بالابيض، والمزخرفة. وهذا النوع تتميز به امريكا اللاتينية.

كانت لخطوات الدوق صدى على الارض. وانتصبت امرأة كانت جالسة على احد المقاعد واقتربت من الدوق وهي تمد يدها للسلام. وللحال شعرت جين بأناقتها وجاذبيتها. شعرها الاسود مرفوع بشكل كعكة. ابتسمت عند اقترابها من الدوق بيدرو دي زانتو.

«عزيزتي، ما أجمل رؤيتك بهذه السرعة!»

انحنى الدوق امامها يقبل يدها.

«وانت ايضاً، ما اسعدني برؤيتك يا عزيزي. فأنت دائما بهجة للعين،

ولا يوجد في البرازيل كلها حديقة اجمل من حديقتك، تشعر الواحد انه موجود في البرتغال.»

«هذا لطف من لطفك، يا بيدرو.»

ورفعت السيدة دي ايفانجيل وجهها الذي يشبه زهرة غريبة تذبل امام ابتسامة الدوق الحارة وقالت:

«مازال كاسترو في الباخرة، وكم كنت سعيدة برفقة تريستاو.»

وبينما كانت جين تستمع الى الحوار الذي يدور في لغة انكليزية صحيحة، كالمتداولة غالباً بين الامريكيين المثقفين، لمحت الصبي الصغير جالساً كعفريت على احد جدران الدار المنخفضة. كان ينظر اليها وابتسامة خفيفة في عينيه المتلألئتين كالذهب في ذلك الوجه الصغير الساخر، وبقربه هرّ أبيض يرتدي عقداً ازرق يتدلى منه جرس صغير، ويموء كلما داعب الصبي فروته اللامعة.

وكلما التقى نظرها بنظره، كان قلبها ينقبض.

«آنسة داير!»

انتفضت جين حين سمعت الدوق يناديها، فالتفتت اليه. وبدا التعقل مستحيلا اذ شعرت برغبة البقاء قرب الدوق وابنه. ولأول مرة في حياتها تريد شيئاً ما بكل قواها. وكأنما مصيرها متعلق بيدي هذا الولد اللتين كانتا تداعبان الهر الابيض.

قال الدوق بصوت عذب:

«فيليسيا، هذه الفتاة التي كلمتك عنها هاتفياً. ترغب بالعمل في البرازيل والتقيت بها عندما جاءت برسالة من قبل ابنة عمتها. انها تدعى جين داير»

«انا سعيدة بمعرفتك، آنسة داير»

نظرت فيليسيا دي ايفانجيل الى جين وجهاً لوجه. كانت تبتسم وعيناها تبحثان فيها عن تشابه مع لارين.

«ما الذي دفعك للبحث عن عمل في البرازيل، يا آنسة؟ الصيف على الابواب والحرارة تصل عالية الى حدّ الارهاق، وانت لا تشبهين اللواتي تراهن على الشاطىء، وقد اسودت بشرتهن من جرّاء تعرضها لأشعة الشمس.»

ابتسمت جين ابتسامة خجولة ومتوترة وقالت:

«يسعدني ان اتعرف عليك، يا سيدتي. ان منزلك من اجمل المنازل التي لم ار مثلها من قبل.»

«شكرا جزيلاً.»

وبدت عينا فيليسيا السوداوين اكثر دفئاً وتابعت قائلة:

«هذا المنزل من الطراز الحديث. انه ممتع حقاً، ويشبه المنازل البرتغالية بكل تفاصيله. انا برتغالية. ولد زوجي في البرازيل، مثل بيدرو..مثل حضرته!»

ألقت فيليسيا دي ايفانجيل نظرة سريعة على الدوق، لأنها لم تعرف بعد كيف يعامل الدوق ابنة عمتها، خطيبته السابقة. لكن الدوق كان ينظر الى ابنه ولم يلاحظ لهجة التساؤل في صوتها.

«تعال يا تريستاو وقابل صديقة جديدة. انها فتاة شابة من انكلترا، وربما تبقى معنا لتعيش في الصقر الذهبي.»

«اذاً، يا ابي، ستتزوجها؟»

كان صوته الناعم الواضح اشبه بصوت عصفور. وشعرت جين بعذاب في داخلها، واحست برغبة الهرب قبل ان تلتقي عيناها عينا الدوق من جديد.

اجاب الدوق بنبرة مجرّدة:

«اعتقد انك تفضل ان تكون الآنسة صديقة لك، صديقة حميمة، معها يمكنك استكشاف الغابة والتنزه على الشاطىء، وانت على ظهر جواد. وهي ستخبرك كل شيء عن بلادها وتمرّنك على الدروس الانكليزية قبل ان تذهب الى المعهد الذي درست انا فيه.»

«حيث كنت تلعب الركبي يا ابي؟»

وحدق تريستاو بعينيه الذهبيتين في وجه ابيه. وشعرت جين بارتخافة الدوق الاليمة. هذا الرجل الطويل القامة الذي كان يبدو سيد نفسه.

«نعم، يا عزيزي، هناك في المعهد حيث ستكون تلميذاً افضل مني. تعال، يا ابني، وسلّم على الآنسة دايره»

انسلّ الصبيّ مطيعاً والده. ووصل وهو يعرج.

واستجمعت جين قواها وحاولت جاهدة الابتسام.

«نهارك سعيد، آنسة دايره»

مدّ تريستاو يده، ورفع صوبها وجهه الصغير وعيناه الرصينتان الخائفتان.

وفكرت جين في لحظة سريعة انه لا يشبه الدوق شيئاً اكيداً بل ربما يشبه والدته.

«انا سعيد بمعرفتك يا تريستاو، آمل ان تصبح من أعز الاصدقاء.»

شدّت جين على يده وشعرت بخفقة صغيرة في قلبها عندما سحب يده ولم يبتسم لها. اكتفى بأن حدق بها، وتأكدت جين كل التأكيد انه كان يقارنها بأبنة عمتها لارين.

لا شك ان روح النكتة التي تتمتع جين بها انقذتها مرّات عدة من المواقف الحرجة، فقالت:

«ارى انك تحب القطط وانا احبها كذلك، لأن الكلاب غالباً ما تكون كبيرة الحجم كأنها ستلتهمني دفعة واحدة!»

«عند ابي كلب يعيش معنا في الصقر الذهبي، لن يعجبك. وعندما ينتصب يصبح بطول ابي، وفي الغابة اسود ايضاً، تأتي احياناً قرب المنزل.»

حسناً، فكّرت جين لقد رغبت كثيراً في الوصول الى هذه اللحظة. اجابت:

«العيش قرب الغابة المتوحشة مثير الاهتمام، لكن بالنسبة الى فتاة انكليزية اليفة مثلي فالافضل ان تعيش في بلادها. انني اذا شاهدت اسداً قريباً مني، سأصاب بالذعر، دون شك.»

نظر تريستاو الى عيني جين بحماس وقال:

«لم ار من قبل اي انسان ذو عيون خضراء. عادة القطط فقط..»

قال الدوق بقساوة ملطفة:

«تريستاو، انسيت حسن التصرف..»

«لكن، يا ابي، عيناها خضراوان..»

وابتسم الصبي وقال:

«اني اراهن ان الآنسة داير تموء اذا داعبها أحد.»

ضحكت جين لهذه الملاحظة. ولما رأت التقلص على وجه الدوق قالت بسرعة:

«انك على حق، يا تريستاو هل تريد اختبار ذلك؟»

مدت جين ذراعها النحيلة نحو الصبيّ وقالت:

«داعبني، وترى.»

تدخل الدوق وقال:

«لن تفعل شيئاً كهذا».

القى الدوق نظرة خاطفة الى جين،فيها لمحة غضب غريبة.

«لا تشجعيه على التظاهر بقلة الاحترام، يا آنسة داير. لا يجب ان يعتبر ان رفيقته لعبة يمكنه ان يلاعبها بالحشرية نفسها كما يلاعب قطاراً او دمية.»

اجابت جين في جرأة هادئة:

«ومن جهة ثانية يا سيدي، لا اريد من تريستاو ان يعتبرني انسانة حزينة نسيت طفولتها: الاولاد يتمتعون بحشرية مبالغة مع لعبهم وكذلك ايضاً مع الاشخاص الذين يعيشون معهم. اني لا اعدك بأني سأكون وصيفة لأبنك، كما في القرن الماضي. اذا كان هذا ما تتوقعه مني. لا يمكنني الا أن اكون نفسي.»

ولدى سماع الدوق هذه الكلمات، قطب حاجبيه العريضين فوق انفه المتغطرس...ودخل خادم يحمل صينية عليها بعض الاطعمة الخفيفة واذا بالسيدة فيليسيا دي ايفانجيل تدعو الجميع الى تناول طعام العصر:

«تعالوا! الطاولة حاضرة. الشاي والحلوى مع الكريما وكعكة الفريز

وبمجموعة من الفاكهة.»

«يبدو لي، يا آنسة داير، انك لست الانسانة المتزنة التي يجب ان اختارها للسهر على تريستاو»

«من حقك ان تفكر ذلك، يا سيدي.»

نظرت جين في عيني الدوق، رافعة الرأس، مستعدة تماماً لمجابهته.

«نعم هذا من حقي. ما رأيك يا فيليسيا؟ هل هذه الفتاة بعينيها الخضراوين تصلح حقاً لتكون موضع ثقة؟»

ردت فيليسيا وهي ترمق الدوق بنظرة مفاجئة فيها بعض التحدي:

«بيدرو انت لم تتردد من قبل في اعطاء رأيك بأحد. والآنسة داير ما زالت شابة، لكنها تبدو انسانة ذكية ومليئة المخيلة. اعتقد ان صفاتها اهم بكثير من...»

توقفت فيليسيا عن الكلام، وابتسمت لجين وبدأت تقدم الشاي.

انسل تريستاو قرب جين وسألها بصوت منخفض:

«هل حقاً تستطيعين المواء، يا آنسة؟»

كان صوت جين يحمل بحة طبيعية. واحياناً يمكنها ان تصدر رنة شبيهة بالمواء. اخذت جين تريستاو الى زاوية منفردة واحنت برأسها نحوه وبدأت تموء. فجأة ضحك تريستاو وشدّ بيده على يدها.

سألها تريستاو بصوت منخفض:

«وهل يمكنك ان تتحولي الى هرّ؟»

«كلا، يا صديقي، لكنني اتمنى ذلك احياناً.»

ظلّت عينا الصبي تحدقان بوجه جين، ثم التفت نحو ابيه قائلاً:

«اعتقد، يا ابي، انني سأكون سعيداً لو بقيت الآنسة معنا لتعيش في الصقر الذهبي، فهي لا تشكو من شيء.»

ثم، شعر تريستاو بالوحي فجأة، واكمل وهو يلقي نظرة سريعة الى جين:

«ارى انه ينقصها الغذاء الكافي. وستحسن احوالها اذا جاءت وعاشت معنا!»

قال الدوق بنبرة جافة:

«اذا علينا ان نصطحبها معنا.»

شعرت جين بالحزن لدى سماعها اقوال تريستاو ولكنها ما لبثت ان احست بالارتياح عندما قرر الصبي بنفسه قبولها بينهم.

قالت فيليسيا مقاطعة حبل تفكير جين:

تعالوا نشرب الشاي. اجلسي هنا يا آنسة داير، وانت يا بيدرو، اجلس قبالها، وهذا فنجانك يا تريستاو اجلس على الحافة وخذ هذه الكعكة. وانت يا جين، هل تأخذين بعض الحلوى؟ اتسمحين ان اناديك بأسمك؟ انك صبية شابة، وهذا من صالح تريستاو ولهذا السبب اختارك. اعتقد يا بيدرو، انك عرفت كيف تختار رفيقة تريستاو »

«ولماذا تعتقدين ذلك يا فيليسيا؟»

اخذ الدوق فنجان الشاي وسحب كرسياً مريحاً، واخذ يتأمل

فيليسيا باعجاب، في ثوبها الحريري الازرق. كانت تجلس في الظل، وكانت الاقراط الصغيرة الزرقاء تلمع في اذنيها مثل الاصداف مظهرة لون شعرها الحالك السواد.

«فقط لأنك تصرفت بتعقل، كنت رزيناً اكثر من اليوم الذي اخترت. لن اكمل...»

قالت فيليسيا هذا الكلام وهي تبتسم بهدوء وبقليل من السخرية. ثم وجهت حديثها الى جين:

«اليس لديك اقرباء يمكنهم ان يعارضوا اذا عرفوا انك تعملين في البرازيل، يا جين؟»

«مات ابي وامي عندما كنت صغيرة جداً حتى انني لا اتذكرهما. اخذتني عمتي الى بيتها وتربيت على يدها. لكن...ليس هناك ايّ صلة حميمة تجمعنا، وحتى مع ابنة عمتي، فطباعنا مختلفة تماماً.»

ولاحظت فيليسيا قائلة:

«ستفاجأ عمتك كثيراً عندما تخبرينها عن خطتك. لا شك ان الوضع حرج وجارح، يا بيدرو.»

«صحيح يا عزيزتي.»

«انت اذاً تعرف جيداً ان الآنسة داير هي سكرتيرة عمتها التي كادت ان تصبح حماتك. هل تفعل ذلك عن قصد؟ اعرف انك احياناً رجلاً حاذق.وحاضر للأنتقام، مثل بيدرو القاسي القلب.»

«هذا ممكن يا عزيزتي». «هل تريد مزيداً من الشاي؟»

هزّ رأسه ونظر الى ساعة يده:

كلا، شكراً. سنعود الى الفندق حيث تقيم الآنسة داير وفي المساء عليّ

حضور وليمة عشاء مع بعض رجال الاعمال. لقد مضى الوقت بسرعة. وانت يا تريستاو بعد ان تنظف يدك من الحلوى، يمكنك ان تسلم على جين وتقول لها الى اللقاء. بعد ايام قليلة سنعود جميعاً الى المنزل، وحتى ذلك الوقت عليك ان تكون لطيفاً مع فيليسيا.

نظر تريستاو الى والده برصانة مما جعل قلب جين يتدفق بشعور غريب. لم يعرف الصبي امه، يمضي احياناً بعض الوقت عند «خالات» هن صديقات والده، وهو الآن يستعد لقدوم رفيقة تهتم به مكان الوالدة التي يفتقدها. لا احد قادر على معرفة ماذا يجول في خاطر هذا الصبي الصغير.

نهض الصبي وغسل يديه في ماء الساقية ثم نفضها لتنشفا تحت الشمس. وتوجه نحو جين ومدّ يده يسلم عليها بعدما عرج على ساقه المريضة.

«الى اللقاء، يا آنسة.»

في الحال، امسكت جين بالصبي وداعبت وجنتيه بخفة وقالت:

«نعم، الى اللقاء، يا تريستاو.»

رافقت فيليسيا الدوق و جين حتى وصلا الى السيارة، بينما كان تريستاو مازال يأكل الحلوى ويداعب الهرّ الابيض، كان غاضباً على نفسه لأنه اظهر عاطفته.

قرب السيارة الرمادية، قبّل الدوق يد فيليسيا الناعمة:

«انني مدين لك للعناية التي تقومين بها تجاه تريستاو. انك لطيفة معه، حتى ولو انك احياناً غير لطيفة معي.»

«يمكنك ان تتحمل ذلك!»

وجهت فيليسيا ابتسامة خفيفة الى الدوق:

«صحيح انني اعرفك منذ زمان بعيد، لكنني ما زلت غير قادرة ان افهمك كلياً، يا بيدرو. من جهة تكون ذلك الانسان اللطيف واللبق، ومن جهة اخرى...»

هزّت كتفيها الجميلتين والقت نظرة سريعة الى جين التي جلست في مقعد السيارة الامامي،تاركة الدوق وفيليسيا يودعن بعضهما البعض. وساور جين الشك بأن السيدة فيليسيا، بالرغم من كونها امرأة متزوجة، لا شك معجبة بالدوق اكثر مما يجب.

كان يبدو على جين انها مستغرقة في حلم بريء، بينما كانت هي تفكر ان بيدرو دي زانتو رجل رهيب، بكل برود اعصابه يأسر القلوب، وتساءلت جين اذا كان قد وهب قلبه لامرأة ما...

«الى اللقاء يا آنسة داير»

كانت السيدة دي ايفانجيل تنظر الى جين بفضول لكن بدون عداوة، ربما لأنها لا ترى فيها الانسانة المنافسة، ولأنها تغار على راحة وسعادة تريستاو.

«شكراً، هذا من لطفك، يا سيدتي.»

ابتسمت لها جين وهي تشير بيدها. دارت السيارة في تمهل وابتعدا عن المنزل.

وانطلقت السيارة لوقت غير قصير وهما صامتان. وفجأة بدأ الدوق بالكلام.

«اذا اتفقنا. انا سعيد انك وافقت على عرضي. ما رأيك بالسيدة ايفانجيل، هل اعجبتك؟»

«نعم، انها لطيفة جداً وجمالها ساحر وجذّاب.»

«فيليسيا كانت صديقة والدة تريستاو منذ ولادته، وكما سبق وقلت لك، كانت ممرضة قبل ان تتزوج.»

« وا...والدته؟»

كانت انفاس جين متقطعة.

«لكنني اعتقدت انها...»

«انها ماتت؟»

«نعم، شيء طبيعي.»

«لماذا تقولين ان ذلك طبيعي؟ انها شابة وانجاب طفل لا يؤدي بالضرورة الى الموت.»

«اذا، يا سيدي، انت ما زلت بلا زواج...»

ارتبكت جين في اجابتها.

قال الدوق بصوت بطيء:

«نعم مازلت رجلا عازباً وذلك بسبب المرأة التي هجرتني. ماذا يا آنسة داير، هل تشعرين بالصدمة حقاً. ان يكون للرجل ولد من دون ان يتزوج؟ لا اعتقد. انك تفكرين مثل اولئك الذين يدينون الرجل والمرأة عندما يطلقان العنان لغرائزهم قبل ان يبارك زواجهما. لاشك ان الحب القوي موجود ولا يأبه بالحشمة او التعقل... ليس من الضروري لرجل ان يتزوج والدة ابنه ليصبح اباً... ربما يبدو ذلك لغزاً. هنالك جواب...لكن هذا لا يعنيك.»

اخذت السيارة منعطفاً ضيقاً. وكان البحر يبدو مضاء بشمس المغيب والسماء برتقالية اللون وجميلة. ينعكس نورها على وجه الدوق

الاسم الذي لا يتبدل. هذا الرجل قادر ان يكون قاسياً مع امرأة بقدر ما هو قادر ان يكون طيباً مع طفل.

كانت السيارة تسير بسرعة في محاذاة الشاطىء الصخري المنحدر او تجتاز خاصرة التلال المستديرة.

وكانت يدا جين تشدان على بعضهما البعض وقلبها المضطرب يخفق بسرعة. والدة تريستاو مازالت على قيد الحياة، لكن الدوق فضّل لارين ان تحلّ مكانها. قال الدوق، انه لغز معقد وتشعر جين انها غير قادرة على حلّه.

الجواب الوحيد المحتمل هو ان بيدرو يكره اليوم المرأة التي احبها في الماضي...لقد ابعد والدة تريستاو عن حياته، لكن ذلك لم يمنعه ان يحب ابنه الى حدّ احتمال الشائعات وقبول سمعة الرجل الفاسق نتيجة هذه العلاقة.

وجين، التي تجهل كل شيء عن المغامرات العاطفية، لم يصدمها حب الدوق لمن هو من لحمه ودمه. لكنها متأثرة من استهتاره بسعادته الشخصية ومن قساوته الشرسة تجاه المرأة التي انجبت تريستاو

«اما زلت تترددين، ايتها الفتاة المحتشمة، في ما يخص مركزك في منزلي؟ هل انت الآن ناقمة على تريستاو لأنه ولد من علاقة غير شرعية؟»

اجابت جين في صوت ساخط ومتألم:

«لا، لا يحق لك ان تتكلم معي في هذه اللهجة...»

«عندي جميع حقوق رب العمل. كل شيء كان يبدو لك عاطفياً ما دمت تفكرين ان والدته مازالت حية. افاقت عندك روح الفضيلة؟»

اجابت جين باحتجاج:

«انت الذي تتصرف بقساوة معي. من الطبيعي الاعتقاد... ان والدة تريستاو ماتت. واكون انسانة حقيرة اذا تصرفت بعدائية مع ولد لأي سبب ما. انا احب ابنك كثيراً، سيدي، ومتأكدة جداً من رغبتي لاكون رفيقته.»

سألها الدوق بنبرة سخرية وهو يشعل ضوء السيارة من الداخل مما انار وجه جين الشاحب والمتعب:

«لماذا اذاً هذا الشجار؟ لن افرض عليك سوى شيء واحد وهو ان تكبحي فضولك فيما يخص والدة تريستاو. لا تسألي ايّ سؤال عنها، وباختصار، عليك ان تستمري في الاعتقاد انها لم تعد حيّة.»

«نعم، سيدي...هل يجب ان اطلب اذناً للعمل في البرازيل؟»

«كلا، هذا غير ضروري، بالنسبة الى السلطات الرسمية. انت ضيفة عندي واذا كنت ادفع لك معاشاً لاهتمامك بتريستاو، فهذا لا يخص أحداً غيري.»

«لكن، سيدي، انني لا افهم. كنت اعتقد ان عليّ طلب اذن. انك توظفني عندك والسلطات الرسمية على علم بانني دخلت البرازيل وانا احمل القليل من المال.»

«انا الدوق المنذور دي روس زانتو، وحتى في البرازيل، رجل مثلي يتمتع ببعض الحرية. لست مصراً على ان تقولي للسلطات عن عملك لديّ. يكفي ان تكوني ضيفة...ربما تخشين ان يظنك الناس عشيقتي؟»

احمر وجه جين وشعرت بجرح عميق داخلها من جراء هذا

السؤال. لولا ان صورة تريستاو مازالت تلازمها، لرفضت قبول عرض الدوق. لولا

قال في مزاج ممزوج بالسخرية.

«ملاذا لا تقولين انني رجل شرير وترتاحين.»

«انت ، رجل شرير، خلاصك الوحيد هو حبك لتريستاو، من اجله فقط قبلت عرضك.»

كانت اسنان الدوق تلمع ببريق شرس، وفهمت جين انه لم يسبق له ان سمع احد موظفيه يكلمه بهذه اللهجة وهذه الحرية. كانت السيارة تسير نحو اضواءالمرفأ. وتساءلت جين كيف سيتصرف معها الدوق عندما تبدأ وظيفتها وبعد ان تكون قد خسرت كل اتصال مع قريباتها.

ستعتقد مادج ان جين تلاحق الدوق. وعلى هذه الفكرة، احمر وجهها وعضت على شفتيها.

هل هذا ممكن؟ هل هي حقاً تخضع لميول قلبها الذي يشدها نحو الدوق اكثر من انشدادها نحو ابنه؟

توقفت السيارة امام الفندق حيث تقيم جين وبادرها الدوق بالكلام في نبرة متوعدة:

«جين، لا يجب ان تخيّب امل تريستاو مرة ثانية، واذا غادرت سراً مثل ابنة عمتك، سأكون محتداً هذه المرة. وعندما اغضب، تصبح حياة الذي يحرضني جحيماً. هل تفهمين ما اقصده؟»

اجابت جين بهدوء:

«اعتقد انك تتمتع بنفوذ ذي شأن كبير، وانني متعجبة كيف انك

سمحت للارين ان تتخلص من قبضتك. فلديها الكثير تعطيه، اكثر مني.»

«انت انسانة شديدة العاطفية، اعتقد ذلك يا آنسة داير، تعتبرين ان الرجل والمرأة يتزوجان فقط اذا احبا بعضهما البعض حباً مجنوناً. والاّ اصبح الزواج بالنسبة اليك شنيعة، اليس كذلك.»

«نعم ، بالفعل ، سيدي.»

فجأة امسك الدوق يد الفتاة التي كانت تحاول فتح باب السيارة، واقترب منها حتى انها خافت منه. كانت عينا الرجل تحدقان في عينيها كأنه يريد ان يسحرها.

«ارجوك! يجب ان اعود الى الفندق، اني اشعر بالتعب...»

«نعم، انت متعبة، وقلقة وخائفة باستمرار أن تعيشي حياتك الخاصة. انت لغز يا آنسة داير. لو كنت اكثر لطفاً، لكنت سمحت لك بالعودة الى حياتك الماضية القاسية الخالية من ايّ خطر ومن ايّ رونق كذلك. لكني لست رجلا طيباً ودافعي الوحيد هو الانتقام، كما اشارت فيليسيا في حديثها. ماذا ستفعل مادج بدونك يا جين؟»

«ان ...اعتقد انها ستدبران امرها.»

شعرت جين بالخدعة، وانها سجينة عينيه الذهبيتين، وفجأة شعرت بالخوف ان يكشف حقيقة احاسيسها من نظرته اليها. فأشاحت بوجهها.

«هل تسمح لي بالذهاب الآن، يا سيدي؟ كان النهار مرهقاً. وانت على موعد مع بعض رجال الاعمال. اليس كذلك؟»

«هذا صحيح. نعم انك تذبلين كزهرة الشمال المعرضة للشمس

الاستوائية. زهرة بيضاء اوراقها خضراءداكنة. يمكنك الذهاب الآن، وهذا بعض المال لكي تحاسبي صاحب الفندق غداً»

اصفر وجه جين وعضت على شفتيها. فعليها قبول هذا المال. واخذ الدوق يدها واضعاً فيها بعض الاوراق النقدية.

«ستأتي سيارة الى الفندق نهار الخميس بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحاً، لتأخذك الى فيلا الصخرة، كوني حاضرة أنستي. ومن ثم تذهبون الى المطار خارج المدينة وانت وتريستاو تأخذان الطائرة الى الصقر الذهبي.»

سألت جين وصوتها يرتجف:

«اهذا بعيد... كل البعد؟»

«حيث يصب الأمازون في البحر، حيث تلتقي الغابة بالادغال.»

نزل من سيارته، ورافق جين حتى مدخل الفندق:

«ليلة سعيدة، جين.»

ابتسم لها ابتسامة سريعة قبل ان يعود الى سيارته، التي ابتعدت بصمت وهدوء في الليل.

٦ـ لقاء البدائيين

شيء غريب لا يصدق ان يعبر هذا الجهاز الفاخر الجوّ الفضائي بهذا الهدوء الساكن... ليس في داخل الطائرة الخاصة مقاعد مفصولة بممر وسطي، كما هي الحال في الطائرات العادية. انما داخلها قاعة استقبال تحتوي على مقاعد مريحة. وطاولات صغيرة. سجادة رقيقة تفترش الارض. الموسيقى تنطلق من المذياع. وعلى احدى الطاولات المنخفضة وضعت بعض المأكولات المتنوعة: من الدجاج البارد والخبز والزبدة، والفاكهة والمرطبات المنعشة.

كان تريستاو يقرأ كتاباً مصوراً بالرسوم ويشرب قدحاً من الحليب الممزوج بفاكهة التفاح. اما الدوق وجين فكانا يشربان القهوة البرازيلية. ومن نافذة الطائرة راحت جين تتأمل الغابة. انها بلاد خضراء غنية، حيث يجري وشاح من المياه العميقة يلمع سطحها كمعدن مذاب. ومن وقت الى آخر تخترق الطائرة الغيوم، حيث لا يظهر شيء: انه شعور غريب وممتع.

لقد تركت جين كل شيء تعرفه، خلفها بعيداً. وها هي طائرة بيدرو دي زانتو الخاصة تأخذها الى مكان آخر والى حياة جديدة وبعيداً ايضاً. في سلة المهملات، في غرفة الفندق، برقية ارسلتها

مادج ديسموند، وقرأتها جين في الصباح نفسه. كانت تأمر فيها جين بالعودة حالاً. فشعرت جين بالذنب وراحت تذرع ارض الشرفة، ذهاباً واياباً، متسائلة مرة اخرى اذا كانت قد اختارت الطريق الصحيح.

وهي الآن في الطائرة تتساءل ما اذا كان قرارها النهائي ناتج عن خوفها من الدوق، او نابع عن اختيارها الشخصي.

لقد سبق ان قام تريستاو بهذه الرحلة من قبل، وهو شغوف بقراءة مغامرات طرزان؛ لكن جين تعي في كل لحظة وجود الدوق بقربها، وتشعر بسحر الرحلة. العالم من فوق يبدو لها شديد الغرابة والجمال...

قال الدوق وهو ينحني لرؤية ذلك العالم الذي يخصه:

«قرب الجداول، تتمدد التماسيح السوداء في الوحل. عيونها تشبه شذرات الذهب المطمور في الصخر، انها حيوانات بدائية، لا تتمتع بجمال الحيوانات الاخرى الموجودة في الغابة، وهي ايضاً حيوانات متوحشة للغاية.»

وسألت جين الدوق وهي لا تجرؤ ان تدير رأسها الى الوراء، خائفة من رؤية عينيه السوداوين اللتان تثيران فيها جميع المخاطر والمخاوف المتوقعة في هذه الحياة الجديدة التي تجرأت على خوضها.

«اليس الاسد والنسر ايضاً من الحيوانات المتوحشة؟»

«فقط اذا كانت هذه الحيوانات جائعة، او مريضة. يبدو انك تجهلين ان مثل هذه الحيوانات هي اقل توحشاً من اولئك الرجال الانانيين الذين لا ينظرون بحنان الى العذابات الجسدية والنفسية التي يعاني منها

غيرهم من الناس... يعمل لديّ بعض الهنود من قبيلة الماياس، ارجوك الاّ تخافي منهم. مع مرور الزمن تتعودين عليهم ويصبحون اصدقاء لك. في البداية سيرتابهم القليل من الشك. انهم رجال من جنس عريق، منعتهم من ان يصبحوا مدنيين. انهم ينتمون الى هذه البقعة من العالم، والمدينة تحطّ من قدرهم، يتمتعون بجمال وصدق واخلاص. فهم اسلاف الماياس الذين كانوا يعيشون هنا عندما رست المراكب الاولى الآتية من العالم القديم... لا شك انك تحبين المطالعة والتاريخ؟»

«نعم، بعض اسلافك كانوا يتمتعون بشراسة متوحشة، يا سيدي.»

«حقاً... وانا اعترف بذلك. اما المغامرون الاسبانيون الذين غزوا امريكا فلم يتصرفوا دائماً كما يرغبون. الم تقرأي عن الدوق بيدرو الذي ارغمه الماياس على شرب الذهب المغلي؟»

ارتجفت جين لدى سماعها ما قاله. واغمضت عينيها تتخيّل هذه الصورة التي رسمها الدوق. واذا بالدوق يفهم ما يدور في مخيلتها ويقول وهو يبتسم:

«لا شك انك تتمتعين بمخيلة خصبة يا جين. وللأسف انك سمحت لها ان تبقى مسجونة طيلة هذه السنوات الماضية! هيا اشربي قهوتك وتعلمي ان تحبي الحرية.»

سألت جين:

«هل انا حقاً انسانة حرة. عندما انظر الى عالمك يا سيدي، اشعر بقفص بين البحر والجبال، يخيفني بعض الشيء.»

«ان ما يخيفك اكثر من كل شيء، هو جرأتك للتخلص من القفص

الذي كنت مسجونة فيه عند عمتك، من اجل ان تحلّقي وراء الشمس. ارجوك ان تنسي آل ديسموند يا جين!»

«هل هذا امر يا سيدي؟»

«كما تريدين.»

«انت تتكلم بصورة مطلقة، كأن لارين لم تكن تعني لك شيئاً.»

«يا فتاتي العزيزة، ان ابنة عمتك جميلة وربما تستحق مكاناً في مجموعة الاشياء النادرة. لكن ذلك لا يعني انها تملك القدرة على ان تجعل الرجل ينسى بقية النساء...هذه القدرة التي تسميها الحب، على ما اظن... الحياة جعلتني انساناً وقحاً، ومع ذلك ما زلت اعتقد ان الحب الحقيقي، النادر، لا بدّ ان يعبر طريق الانسان ولو مرة واحدة في حياته، وبسحر نظرة واحدة، ان يحتلّ قلبه.»

«لا يمكن ان تكون فخوراً لانك اردت امتلاك لارين كأنها تحفة تضاف الى مجموعتك.»

«انت قاسية جداً يا جين. احياناً اظن انك ترغبين ضربي بالمسطرة على اصابعي.»

سألت جين وفي عينيها نظرة ساخطة:

«والا، لتزوجتها من دون...من دون حب؟»

«اعتقد ذلك يا جين. ولكي اشكر لارين على ارسالها من ينقذني منها ارجعت لها المجوهرات التي كانت تناسبها جداً. انني اكيد ان ذلك يساعد آل ديسموند على التخفيف من آلامهم بعد هجرك لهم. وكما يقال: الماس اعزّ صديق للمرأة.»

«آه، يا سيدي، انت وقح للغاية!»

«الى هذا الحد؟»

«لا تسألني يا سيدي، انا لا اعرف مدى خطاياك.»

«ولا اهمية فضائلي؟»

«صحيح.»

انها تعترف بأن الدوق يتمتع ببعض الفضائل وتأكدت من ذلك بعدما القت نظرة سريعة الى تريستاو.

ان رجلاً بمقامه لاشك يكتم سر ولده، او ربما يساعد على تربيته خفية، لكن الدوق اختار الاعتراف به والمحافظة عليه بقربه في معظم الاحيان. انه اب صالح.

قال الدوق بسخرية:

«انت، بالطبع، لا تستعين الا بالفضيلة. وبما انك قديسة، تتصورين لك الحق ان تعظي رجلاً يبدو لك شيطان بحد ذاته. هل في نيتك ارشادي الى الطريق الصحيح وجعلي انساناً صالحاً؟»

اجابت جين قائلة:

«اعتقد ان عملي لديك ان اكون رفيقة لتريستاو، لا ان اكون مرشدتك.»

تغيّرت ملامح الدوق بشكل خفيّ: تصلب فمه وعبر في عينيه تعبير بارد.

«حذار، لا اريد ان اغضب! انا اعرف جيداً انني انسان وقح، لكن لا اريد ان اسمع ذلك عن لسانك. انا خبير بالحياة والناس وأعرف ان اعجب بانسانة فاضلة.لأن الفضيلة هذه الايام شيء نادر، كالماس الازرق. ولهذا السبب شئت ان تكوني على اتصال مع تريستاو لم

يخطر ببالي قبل ان اتعرف عليك ان تريستاو بحاجة الى انسانة تكون رفيقة ومعلمة وممرضة.»

توقف برهة عن الكلام وهو يحدق في جين بامعان وراح يردد:

«يا إلهي لا اريد ان اغضب! انت يا جين، لست سوى تلميذة مازال ينقصها دروساً في الحياة. ومن العجب ان تكون حذرة مني.»

فجأة ابتسم الدوق، ولمعت اسنانه البيضاء.

«عندما تلتقي القديسة بالشيطان، يصير هناك كبريت في الجوّ. هل تتفقين معي؟»

«نعم»

ابتسمت جين خجلاً وهي تنظر من نافذة الطائرة. وكانت الادغال تبدو لها اقلّ توحشاً من الدوق نفسه. احست بقشعريرة تسري في عروقها.

«اما زلنا بعيدين عن الصقر الذهبي.»

اجاب بهدوء:

«الى حيث يطير الصقر.»

ثم وجه كلامه الى تريستاو:

«تبدو معجباً كثيراً بهذه القصص المصورة. لست اكيداً انني على حق في السماح لك ان تقرأ هذه القصص السخيفة.»

«انها ليست سخيفة، يا ابي.»

ورأت جين الوالد والولد يتطلعان الى بعضهما البعض برصانة.

«اني اقرأ مغامرات طرزان الذي كان يعيش في الادغال. كان يعرف لغة جميع الحيوانات وكان نبيلا مثلك، يا ابي.»

وفي لحظة، اصبحت ابتسامة الدوق متسامحة. انه حقاً رائع مع ولده. ويمكن ان نرى النبل والاصالة عند الاب والابن معاً. الدوق انسان مثقف غريب ومتغطرس.

«وذاكرتي لم تخنني. فان طرزان الشجاع يحب التأرجح على الاشجار. لا يجب عليك ان تقلده، حتى ولو علمتك الآنسة دايران تموء كالقط»

نظر تريستاو الى جين وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة وقال:

«زوجة طرزان تدعى جين. يعيشان في منزل داخل الادغال، اصغر من الصقر الذهبي، بالطبع. اني اكيد انك لم تري منزلا مثله من قبل. فيه مخابىء، ودهاليز وبرج. لكنني كنت افضل الا يكون هناك ادراج لولبية، اذا تسلقتها تؤلمني ساقيّ، الا عندما يحملني ابي على كتفيه»

عاد تريستاو الى قراءة كتابه. وخيّم الصمت. القت جين نظرة خاطفة الى الدوق ورأته مستغرقاً في افكاره. بذل الاطباء جهدهم في معالجة تريستاو كي يشفى بصورة كاملة. لكن الجرح كان خطيراً مما ادى الى ابقاء هذا العائق الدائم.

كان هذا الحادث صفعة مؤلمة بالنسبة الى الدوق الذي يتمتع ببنية جيدة. فلا شك انه كان يرغب ان يشبهه تريستاو كل الشبه، في كل شيء.

كانت جين ترى ان تريستاو ولد جميل وهادىء. لكنها كانت تعتبر انه، حتى ولو كان معاقاً، لن يكون كوالده، ضخماً ووقوراً. ليست ملامحه متناسقة وذات تأثير كبير. عندما يكبر الولد سيصبح رجلا هزيلا ولطيفا لكنه لن يتمتع بقدرة والده على الاغراء، ولا حتى بنفوذ شرس.

لا شك ان تريستاو ورث عن والده النعومة والحنان فقط. فالدوق يعتبر تريستاو نصفه الجيد، فيحبه، ويعتني به ولا يفكر بوالدة تريستاو كأن الامر لا يعنيه.

المرأة التي احبت بيدرو وانجبت هذا الولد الحساس الذكي، توقظ في نفس جين حشرية بالغة. وبرغم تحذير الدوق فهي تحب ان تعرف اذا كانت والدة تريستاو امرأة جميلة وكيف انتزعها من قلبه في هذا الشكل الكامل.

ثم، وكأنها خافت ان يقرأ الدوق افكارها، ادارت وجهها صوب النافذة وراحت تتأمل المنظر امامها.

فجأة لاحظت غياب الاشجار الكثيفة التي حلت مكانها الرمال الحمراء الممتدة مساحات واسعة، حيث يزرع البن. وارتجف قلب جين لرؤية هذا المنظر المؤثر: التلال المزروعة بناً وبجانبها تلال قصب السكر. مزارعون يهتمون بالحقول ويرتدون قبعات من القش لحمايتهم من حرارة الشمس اللاهبة.

وشعرت جين بقلبها ينفتح امام هذا الجمال المتوحش. وحدقت في المنظر بقوة، فهي تريد ان تحفر في ذاكرتها صورة ارض الدوق بيدرو التي لها صلة بتاريخ مليء بالاقدام. ومهما كانت شراسة هؤلاء الرجال الذين يكتشفون هذا العالم الجديد، لقد اظهروا شجاعة وجرأة لا تصدق. وجين لم تقدر ان تمنع نفسها من التأثر امام كل شيء متوحش وحرّ. وراحت تتساءل ايضاً عن امكانية حدوث تنازع بينها وبين الرجل الذي يسيطر على الادغال. تلك الغابة التي تناضل ليل نهار ضد اجتياح مزروعات البن وقصب السكر.

شعرت جين بلهب في عنقها؛ فهمت في الحال ان الدوق ينظر اليها.

«نحن الآن فوق مزروعات البن، اليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي، انه لمنظر رائع للغاية.»

«انا سعيد لأنك تحبين المنظر بعد قليل سنصل الى مدرج الهبوط. اجلسي جيداً واحكمي اغلاق الحزام.»

وقف الدوق ليتأكد من حزام تريستاو، ثم القى ابتسامة سريعة نحو جين.

«يبدو عليك الخوف. هل ان هبوط الطائرة يوترك؟ ام لأنك تشعرين فجأة انك بعيدة جداً عن بلادك؟»

اجابت جين وشفتاها ترتجفان:

«انا بعيدة عن انكلترا. ان نصف العالم تقريباً يبعدنا عنها. ويجب الاعتراف انني غير متأكدة من نفسي.»

«بعد ايام قليلة تشعرين بالثقة. نسيت ان اسألك اذا كنت بحاجة لبعض اغراضك من لندن؟»

وفكرت جين بغرفتها الفارغة تقريباً، في شقة مادج. في خزانة الثياب بعض الفساتين ومعطف للشتاء، لكن القسم الاكبر مما تملكه موجود في حقيبتها. اخفضت جين عينيها، واجابت الدوق انها كانت تعيش مع عمتها ولا تملك شيئاً لنفسها.

سمعت جين صوت الازيز الذي احدثه حزام الامان. واحست انها على وشك الانفجار بالبكاء. وللحظة واحدة شعرت انه بدأ يتقرّب اليها ويستلطفها... هو الانسان الذي يرضي جميع اهوائه!

بعد نصف ساعة كانت جين تشعر ايضاً بالتوتر من جراء هذه الرحلة. وتجلس في المقعد الخلفي، من سيارة جيب، قرب تريستاو. وكانت السيارة مسرعة وتريستاو يشير بأصبعه الى بعض التفاصيل هنا وهناك في الساحل المتعرج الذي يؤدي الى الصقر الذهبي.

سمعت جين الدوق يغيّر سرعة السيارة، التي بدأت بالصعود، والشواطىء الصخرية الوعرة تشرف على رفع رقعة ضيقة وبارزة من الرمل، يلفحها الزبد الابيض.نباتات غريبة تكتسح عجلات الجيب. اوراق تتساقط من الاشجار وتلوحها حرارة الشمس مثل منجل كبير. وكلما صعدوا كلما اصبحت المزروعات اكثر كثافة. الى ان ظهرت فجأة الاسوار الحجرية، والدعائم الضخمة من السياج، مما يشير الى مداخل البيوت في امريكا اللاتينية.

العصافير تغرّد ومن الصعب لمحها من كثافة الاشجار المحيطة بالمكان. والطريق تتعرج مثل نفق معتم. ولما دخلت السيارة في العتمة، ابتسمت جين وامسكت بيد تريستاو.

وبدأ قلبها يخفق، لأنه بعد قليل... سيظهر الضوء، وستصل الى الصقر الذهبي.

وركزت نظرها على الكتفين العريضتين، والرأس الاسمر الابيّ.

ترى بماذا يفكر في هذه اللحظة؟ هل هو نادم لأنه اصطحب الى بيته رفيقة لابنه بدلا من زوجة له؟

وبعد ان قطعت السيارة طريقا متعرجة، استدارت يساراً، وهنا حبست جين انفاسها. فعبرت السيارة تحت قبة هائلة قبل ان تنفذ الى

ساحة المنزل القائم على تلة فوق البحر، تحيطه الادغال.

فوق الساحة درجان متوازيان يؤديان الى شرفة من البلاط، مثبتة بركيزتين حجريتين تؤلفان قبة الرواق. وهذا النوع من البناء يعم امريكا اللاتينية. الحجارة والحديد المصنوع مشغولان بطريقة رائعة. وفي الوسط صقر من البرونز يرفع منقاره الفولاذي، باسطا جناحيه الكبيرين.

الصقر الذهبي، المنحوت داخل حجر من الصلصال يبدو ذهبياً حقاً، لكنه مغطى بالنباتات المتسلقة، ويجثم على هضبة واسعة طليقة.

نزلت جين من السيارة وهي مذهولة. طبعاً كانت تستعد لرؤية شيء من العظمة، لكنها لم تفكر ان يكون المكان مدهشاً هكذا. وامتلأ عقلها بالصوَر: صورة المغامر الاسباني الذي بنى هذا المكان، والمرأة الرائعة التي عبرت المحيطات لتسيطر على هذا المكان.

على مرّ السنين، استقبل هذا المنزل نساء كثيرات. لكن جين شعرت ان ابواب المكان المنحوتة لم تكشف عن وجود غرف كثيرة محمية بمصاريع خشبية منحوتة. والآنية الخزفية منتشرة ومختلفة الاحجام، والخيزرة الوردية...

كانت جين تنظر، مسحورة، بكثرة الازهار الليلكية. وتساءلت اية امرأة زرعت كل هذا.

سألها الدوق بلغة برتغالية سهلة:

«هل انت سعيدة بوجودك هنا يا آنسة؟»

«نعم، سعيدة جداً، يا سيدي»

رفعت عينيها نحو الدوق وقالت:

«كيف يمكن الا تحب الصقر الذهبي اذا قنعنا بقليل من المخيلة؟»
«صحيح، لكن عليّ ان اعرف ذلك. الانسان الوحيد يحب البيت المنعزل... وكما ترين، فأقرب الجيران، المحيط والغابة.»
قالت بصوت منخفض:
«ازهار كثيرة، مأخوذة من النباتات البرية الموجودة في الادغال: ورد سحلبيات...وكلها غالية الثمن في لندن.»
«ها زهرة مجاناً!»

مدّ الدوق يده وقطف زهرة من شجرة النخيل التي تعطي اغصانها هذه الازهار الغريبة والجميلة. اعطاها الى جين. انسحرت جين وهي تتأمل اوراقها الحمراء المرصعة بشذرات من الذهب. انها ناعمة كالمخمل، لكن لا رائحة لها. تريد حماية جمالها من الحشرات والفراشات. واخذت جين الزهرة من يد الدوق وتبعته مع تريستاو صوب الرواق المؤدي الى المنزل. لن يعرف بيدرو انها ستضع هذه الزهرة في دفتر مذكراتها والاحتفاظ بها مدى الحياة، وذلك تذكاراً ليوم وصولها الى الصقر الذهبي هكذا قدمت له قلبها الى الابد.

تحت دعائم الحجارة المنحوتة، فجأة برز بعض الخدم يرتدون البذلة البيضاء ويسيرون بصمت. انحنوا امام الدوق وتريستاو، ومرّوا امام جين كأن لا وجود لها. اثنان منهم ذهبا ليحملا الحقائب من السيارة. والثالث الذي كان وجهه الاسمر يشبه محاربي الاينكاس، بقي يتحدث مع الدوق الذي يعطيه الاوامر.

لم يتحدثا في اللغة البرتغالية. وفجأة تطلع الدوق صوب جين قائلا:

«جين، اقدم لك بريميتيفو، وهو يسهر على تنظيم المنزل وسيتأكد ان لديك كل ما تريدين. كان عمره سنتين عندما جاء الى الصقر الذهبي. قتل الاسد امه،فاضطر والدي الى قتل الاسدوعندما كنت صبياً كنت اركب مع بريميتيفو باخرة صغيرةوننزل الى مصب النهر حيث تتدفق المياه بسرعة. انت تحملين في يدك سحلبيةصغيرة جميلة، لكن بريميتيفو يعرف أين توجد السحلبية الكبيرة البيضاء لاكريستالا. ان الهنود الذين الذين يعملون لديّ ليسوا متوحشين كما يبدون لك. فهم رجال بسطاء ولطفاء. في البدء سيتصرفون كأنك غير موجودة. هذا موقفهم من النساء...هل تفهمين؟»
«بالتأكيد.»

وجهت جين ابتسامة الى الهندي الكبيرذو الوجه الرصين، واجابها بنظرة من عينيه السوداوين، نظرة كانت تلين شيئاً فشيئاً. كان سواد عينيه يلمع كالاطلس الاسود. ونظر بريميتيفو الى تريستاو، ثم الى جين من جديد، وفكرت الفتاة انه يعتبرها صغيرة حتى تكون رفيقة تريستاو.

وجه الدوق الحديث الى خادمه الهندي في لغة لم تفهمها جين، فاذا بالخادم ينسحب بهدوء.

فتح بيدرو الباب الزجاجي لقاعة الاستقبال. ودعا جين الى الدخول وهو يلفظ الكلمات التقليدية:
«اهلا وسهلا، البيت بيتك.»
«شكراً.»

قالتها جين بصوت منخفض وهي تدخل الى غرفة رائعة وفخمة.

تفترش الارض سجاجيد من اللون الاسمر الفاتح. والمفروشات الجميلة ذات اللون الاسود والذهبي يعود تاريخها الى عصور الاحتلال. اطباق من الفضة والخزف الثمين تلقي اضواء والوانا على الخشب الداكن. وهنا وهناك على الجدران، لوحات تمثل صور الفرسان وصور القديسين.

في احدى زوايا القاعة كنبة مغطاة بجلود النمر السمراء والذهبية. لولاها لوجدت جين ان الغرفة جميلة واحتفالية. وعلى احدى الطاولات المصنوعة من الخشب البني القاتم علبة سكائر منحوتة. كما لفت نظرها لوحة مصنوعة من الريش تظهر رجلا نبيلا يرتدي معطفاً براقاً، وعصفوراً مذهباً بمثابة تاج ملكي.

لاحظ الدوق جين تتأمل هذه اللوحة فاقترب منها وقال:

«هذه اللوحة كانت موجودة في دير اليمامة النائحة، وربما تعرفين كيف دخلت هذه الى منزلي. انها من صنع امرأة، وتدل على صبر لم يعرفه عصرنا. ان كل ريشة صغيرة تشبه قطبة تطريز. هذا كل ما تبقى من قصة حب قديمة».

هل يفكر الدوق انه كان اسعد من سلفه؟ وهو يملك ذكرى حية من الحب الذي عاشه؟

ارتعش قلب جين: هل من الممكن ان تكون والدة تريستاو قد دخلت الدير، هي ايضا؟ الم يقل ان تاريخ آل زانتو يتردد بشكل او بآخر؟

وثب كلب ضخم فجأة الى قاعة الاستقبال وتوجه نحو الدوق.

انه كلب جميل، وهو رفيق الدوق الاسطوري. كان يهز رأسه واذنيه كلما داعبه معلمه، ويعوي معبراً عن فرحه لعودته.

اخذ الدوق يد جين فجأة، مجبراً اياها ان تداعب رأس الحيوان وقال لها:

«هذا ارنو، من البداية اظهري له انك لست خائفة، وهكذا يصبح صديقك. ارنو يشبهني. انه يحب اولئك الذين يتمتعون بالشجاعة لمجابهة خصمهم».

ولمست الفتاة جلد الكلب ووبره المجعد والخشن.

«كيف حالك يا ارنو؟ انت كلب اصيل، اليس كذلك؟ وفمك الكبير قادر على اقتلاع رأسي. ها...»

«الآنسة تحبك كثيراً، يا ارنو».

كان تريستاو هنا، يداعب الكلب. وبعدما القى نظرة الى جين، حدق الولد بانتباه الى القامة الطويلة المرتدية اللون الرمادي التي ينظر اليها الكلب كأنها نجمة.

ووعده الدوق قائلا:

«فيما بعد، تأخذك في نزهة، بعد ان تنزل ضيفتنا الجديدة في منزلنا. تعال يا تريستاو! تعالي يا جين! سنذهب الى جناح كل منكما ونرى اذا كانت الاشياء حاضرة لاستقبالكما. لربما اردتما الراحة بعد هذه السفرة الطويلة».

عبروا البهو، وارنو يتبعهم. ثم صعدوا سلما جميلا مصنوعاً من الحديد.

«لقد وصلت»

...فكرت جين بتعجب. تهيأ لها انها تسلك طريقاً ممنوعاً في خطوات امرأة اخرى، لمجابهة قدر ليس قدرها!

٧ـ الهدية

كان المكيّف المثبت في سقف الغرفة، يبعث بالهواء المنعش. كما كانت المروحة تلعب بظلالها على جدران الغرفة ذات اللون العاجي وجين مستلقية على اريكة منجدة، تستريح من عناء هذه الرحلة الغريبة، بعدما ارتدت مئزراً مريحاً.

والآن في امكانها الاستمتاع بهذا الهدوء الساكن في داخلها. فقد ذهب تريستاو الى فراشه باكراً. اثاث الغرفة منحوت من خشب الاشجار المثمرة. وشرفات الغرف تطل على مناظر جميلة يسرح فيها النظر الى مسافات بعيدة، كما تطل على بركة سباحة كبيرة.

وبينما كانت المروحة تدور محدثة خريراً متواصلا، كانت جين تتساءل هل الصقر الذهبي مزيج ساحر من القديم والجديد.

وراحت عيناها تستريحان في هذه الغرفة الكبيرة. سقفها المزخرف باللون السكري والذهبي، جدرانها الملبسة بالخشب المذهب، تعلقت عليها لوحات خيول أصيلة وفرسان يرتدون الدروع الفضية. وفي زاوية منفردة من الغرفة، خزانة ذخائر منحوتة وبرج حمام حقيقي يحمل رفوفاً صغيرة، عليها مجموعة من التحف العاجية. هذه الزاوية تضفي على الغرفة سحراً اثوياً. في داخلها خزانة كبيرة وسرير واسع مغطى بالقماش المخرّم. دعائمه الاربعة سوداء تحمل منحوتات مؤلفة من وجوه واوراق شجر واشخاص.

وتقع الاريكة حيث تتمدد جين في منتصف القبة المستديرة لنافذة تطل على الشرفة المسيجة. وفي آخر باب يطل على حمام مستقل، بشكل دائرة، يحتوي على مغطس مرصع ، بلاطه يرمز الى حب الامريكيين اللاتينيين للحياة. مصنوعة من البلور الوردي. وعلى الرفوف قارورات تحتوي على ملح خاص بالحمام، رائحته لا تقاوم.

راحت جين تتساءل اذا كانت الشقة قد خصصت لأبنة عمتها لارين.

وما لبثت ان هزئت من بساطتها. فهذه الغرفة لا تتصل بغرفة الدوق. حتى ولو كان الدوق ينوي القيام بزواج مصلحة، لما اراد بالطبع ان يلعب دور الاب، بل دور الزوج.

نظرت جين الى اظافر رجليها، ولاحظت انها غير مطلية كأظافر ابنة عمتها. وجين لم تحاول مرّة الاعتناء بجمالها. فالكتاب العادي يلزمه غلاف عادي، وهكذا دفتر مذكراتها الاخضر الموضوع على الطاولة المنخفضة قربها. وفي ما يتعلق بذلك النهار الذي لا يمكن ان تنساه، كتبت جين فقط انها وصلت سالمة الى الصقر الذهبي وانها تنوي قضاء اوقات سعيدة على ان تؤدي عملها بصورة حسنة.

حتى في كتابة يومياتها لم تكن قادرة ان تعبّر عما يختلج في قلبها من مشاعر حميمة. تخاف ان يقرأ احد ما تكتبه وان يسخر من جين داير الصغيرة، الواقعة في حب رجل ذي مقام رفيع، وغني جداً وملىء بسحر جنوني. والزهرة التي اعطاها الدوق لجين هي الدليل على هذا الحب...وضعتها داخل صفحات دفترها قبل ان تذبل اوراقها. لا احد يمكنه ان يعرف انه قطف الزهرة من اجلها هي. والآن ربما نسي الدوق

سلوكه اللطيف. ولن يخطر له ان تلك الهدية قد اثّرت في جين تأثيراً كبيراً. لن تشاء.

وراحت جين تفكر انه، في المستقبل، ما عليها الا ان تفتح دفتر مذكراتها حتى تستعيد الزهرة الذابلة ونقلها وهي، حيث، تكون، يمكنها بالذاكرة ان تجد نفسها من جديد في ساحة الصقر الذهبي المشمسة اذ شعرت انها تنتمي الى هذا المنزل اكثر بكثير من انتمائها الى منزل عمتها حيث ترعرعت.

كانت جين في احلام اليقظة، حين انفتح الباب فاجفلت، وراح قلبها يخفق بسرعة وهي ترى الرجل ، الذي كانت تفكر فيه، يدخل الغرفة. كان يرتدي سروالا اسود وكنزة بيضاء يشع بياضها حيال بشرة جسمه السمراء.

قال الدوق معتذراً:

«طرقت الباب، لكن لعلك كنت غارقة في النوم. قمت بنزهة صغيرة مع ارنو والآن ارغب باحتساء فنجان قهوة. وفكرت ان اشربه معك اذا كان ذلك لا يزعجك؟»

لم يكن بوسع جين الا ان تهز رأسها. لقد انخطف صوتها. حمل الدوق كرسيا من الغرفة ووضعها قرب الاريكة وجلس.

«تريستاو الآن في عالم الاحلام.»

كانت اسنان الدوق البيضاء تلمع من شدةنصاعتها. ولاحظ شعر جين المشعث ومئزرها الاخضر.

«ستأتي القهوة بعد قليل. هذا البن من جني ارضنا، واعتقد انك تحبينه.»

«انا... انا أكيدة من ذلك يا سيدي.»

وفكرت جين ان عليها الجلوس ووضع رجليها على الارض بدلا من ان تبقى ممددة امام الدوق. لكن ما ان تحركت حتى دفعها من جديد، بهدوء، على الوسادة. وشعرت بعضلات يده الحارة. فاضطربت بشدة.

امر الدوق جين بلهجة جافة:

«لا تزعجي نفسك من اجلي. جئت لمعرفة اذا كنت مرتاحة هنا ولا ينقصك شيء. هل تحبين هذا الجناح، يا جين؟»

«كثيراً، يا سيدي.»

ومن نظراتها، فهم الدوق ان جين لم يسبق ان كان لها غرفة من هذا الطراز. يبدو ان بيدرو دي زانتو يفهم ما يجول بخاطرها أكثر من اي انسان آخر. فكبر الخوف في قلبها: قريباً سوف يكتشف الدوق انه كان بالنسبة اليها أكثر من مجرد سيد.

«ربما تتساءلين يا جين اذا كان هذا الجناح مخصصاً لأبنة عمتك... دعيني اطمئن بالك...»

«من غير الضروري، يا سيدي.»

«آه!»

رفع الدوق حاجبيه ونظر الى جين بسخرية.

«ليس هناك باب اتصال، اليس كذلك؟ في القصص التي تقرأينها، يوجد دائماً باب اتصال بين غرفة الزوج وغرفة زوجته، مما يجعل الزواج صفقة يراعى فيها العرض والطلب. يا ابنتي انت لا تعرفين شيئاً عن رجل من طرازي.»

« اني اعترف ان معرفتي بالرجال اجمالا شيء قليل.»

«صحيح. دعيني اشرح لك. لو كنت رجلاً متزوجاً، لا اقبل بوجود باب يفصلني عن زوجتي. فالاتحاد يفترض المشاركة. انا لست ذلك الرجل الذي يطرق باب غرفة زوجته كخادم يستعطي الجميل. آه ان صراحتي تخجلك.»

«نعم»

وبدأت جين تنتظر بفارغ الصبر ان يأتي الخادم بالقهوة سريعاً، لتتحاشى ايحاءات الدوق التي تفرحه، والتي تجعلها تضطرب.

الا يكفيها من عذاب معرفتها ان اليوم سيجيء، ويصبح الدوق زوجاً لامرأة غيرها. وكم ستتألم عندما يخبرها مفصلا عن طريقة حياته مع زوجته، التي ستكون اسعد امرأة بين جميع النساء.

«اني انسى دائماً الى اي درجة من السذاجة انت.»

اجابته جين وهي تخفض ثوبها لتغطي رجليها العاريتين، هي التي لم تحلم ابداً في حياتها ان تكون وحدها في غرفة مع رجل عظيم وجذاب.

«اني سعيدة لأني افرحك يا سيدي.»

وسأل الدوق وفي عينيه ملامح ساخرة:

«هل تتساءلين اذا كانت براءتك في خطر حيال وجودك معي؟»

ورجعت جين قليلا الى الوراء بشكل خفيّ، كأنها تطلب الحماية في الوسادة. وكأنه عرف ما يجول في خاطرها، انحنى الدوق الى الامام وعلى وجهه ابتسامة واضاف:

«البراءة، تثير الرجل اكثر من المغامرة والخبرة. لكن يا فتاتي انقضى

العمر الذي تشعرين فيه بالفضول حيال الرجال. وتريدين معرفة ما الذي يفرقهم عن النساء... لا اعني الفروقات المنظورة.»

«اني ... اني لا اشعر بأي فضول تجاهك.»

«انا اؤكد لك العكس.»

«هل جئت الى غرفتي لتحاكم مدى فضولي؟»

«حذار يا جين، لا تحاولي معرفة الى اي مدى تصل نواياي.»

«هذا يعني انه يحق لك تشريحي، لكن المطلوب مني الاّ أسألك عن اسباب تصرفاتك هذه؟»

«تقريباً صحيح. لكن يجب ان تتعلمي كيف تثقين بالناس. هل تعرفين يا جين انك تشبهين هرّ صغير عصبي، في ذيله مقلاة ساخنة... سأعمل كل جهدي لفك القيود التي تعيقك.»

اجابت جين محاولة ان تكون ساخرة.

«هذا ... هذا لطف منك»

«لن تعرفي ابدا مدى لطفي. ليس من عاداتي التوقف في منتصف الطريق من اجل التقاط هرّ متروك. ربما من واجبي ان امسكك بجلدة عنقك واهزك هزاً!»

واذا بالدوق يحيط بيده عنق جين النحيل ويشد باصابعه تحت شعرها المشعث. كان يمسكها بكل قوته. وشعرت جين انها ستتألم اكثر اذا قاومته.

قال في سخرية:

«يبدو انك تحبين الخدش والمداعبة. هذا هو الفرق بين الرجال والنساء»

صرخت جين قائلة:

«القوة الوحشية؟»

«انت حقاً كتلة اعصاب! كلا، يا قطتي، فالفرق هو ان الرجال والنساء يحبون هذا النوع من العراك، بينما القتال بين امرأتين يكون دائما قتالا متعبا ويؤدي الى حدوث جروح خطرة. اتفهمين، يا جين، الحقيقة هي ان الرجال والنساء لايمكن ان يصبحوا اعداء بالفعل لأنه يمكنهم ان يصبحوا عشاقاً.»

كانت اصابعه تنسحب من عنقها كسحابة نار. وكان يعرف جيداً انه المنتصر في هذه المناقشة. والتفت بلا مبالاة صوب الباب. في هذه اللحظة بالذات انسمعت طرقة على الباب. كان خادم هندي شاب يلبس بذلة بيضاء ويحمل صينية القهوة. اشار اليه الدوق ان يضعها على الطاولة قرب الاريكة. وشعرت جين بنظرات الرجل السريعة والفاحصة التي القاها نحوها. بأمر من الدوق غادر الغرفة بسرعة.

راح الدوق يشرح لجين قائلا:

«ستكونين عرضة لفضول جميع العاملين هنا. فبشرتك شديدة البياض...انظري الى بشرتي:انها تبدو سوداء بجانبك.»

القت جين نظرة خاطفة الى يد الدوق لكنها لم تكن تعي سوى حرارتها وتأثير ذراعه القوية على عنقها.

امرها الدوق بلهجة غريبة:

«قدمي القهوة قبل ان اموت عطشاً. هل مازلت تتذكرين كيف احبها؟»

اجابت جين وهي تمسك بإبريق القهوة الفضي حيث حفر الصقر، شعار عائلة زانتو.

«سوداء، وملعقة سكر»

قال لها، في المرة السابقة عندما شربا القهوة معاً، انه يحب القهوة سوداء مثل نفسه، لكن جين ترى اليوم ان نفسه ليست خالية من المحبة والحنان، وانه قادر على القيام باعمال سخية. ان قناعه التهكمي يخفي روحه المرحة وشرفه، وعزة نفسه.

سكبت جين القهوة وهي تلقي نظرة سريعة الى الدوق. وشعرت بصدمة اذ رأته يراقبها في قوة غريبة. كانت عيناه الذهبيتان تظهران بؤبؤين سوداوين، يشبهان العقيق والليل.

وقالت جين ملاحظة:

«يا له من ابريق قهوة جميل. انه مطلي بالفضة، اليس كذلك؟»

«كلا، انه من الفضة الكثيفة...القديمة، ومن الصنع الهندي والبرتغالي، وهو شغل يدوي. اما سلة الفاكهة فمصنوعة من الفضة والعاج، وكذلك طقم الحلوى انت تحبين الاشياء الجميلة، اليس كذلك؟»

اجابت جين وهي تقدم له الفنجان وتخفض عينيها لئلا تلتقي بنظرات الدوق:

«نعم...انها ميزة يتمتع بها الناس غير المحظوظين»

لم تتعوّد جين على مزاجه. يجب ان تذكّر نفسها بصورة مستمرة ومن أجل هنائها، ان الدوق يدفع لها معاشاً تجاه عملها لديه. ولا شك انه يلعب دور المحقق الذكي من اجل التسلية فقط. في كلّ حال ان حياته كانت مليئة بالنساء الجميلات الجذابات، وهو الآن يشعر بالفضول امام نوع آخر من النساء اللواتي يتمتعن بصفات معاكسة، كصورتها التي تشبه الهر الصغير حسب رأي عمتها مادج.

ثم اضافت تقول:

«من شدة ما يستغني الانسان عن الاشياء الجميلة، يصبح متطلباً»

«هذا تناقض! مثلك يا جين»

استقر الدوق في كرسيه، وبسط رجليه الطويلتين، ثم شرب جرعة من القهوة.

«هل تتذكرين والديك يا جين؟ او انك كنت صغيرة جداً عندما توفيا؟»

«كنت صغيرة جداً يا سيدي»

ذاقت جين قهوتها واضافت بعض الحليب. كانت القهوة شديدة الحرارة ولذيذة الطعم... كما الحياة!

«انها لذيذة الطعم، اليس كذلك؟»

رآها تغمض عينيها للحظة تستمتع بجرعتها تماماً.

«ان ما يجعل الحياة ذات اهمية كبيرة لا يتمّ في لحظة واحدة. انما يتطلب وقتاً وجهداً يا جين. انا سعيد جداً انك لست فتاة سطحية، ساذجة. ويستحق تريستاو كل اهتمامك ووقتك وعنادك. هو ايضاً انسان حساس، قابل للألم»

«انا اكيدة انه انسان شجاع، يا سيدي.»

ثم اضافت غير قادرة ان تمنع حالها من الابتسام:

«ما دام هو ابنك»

«لا شك ان دم آل زانتو يسري في عروقه، لكنني لم اكن يوماً الانسان الشديد الحساسية، بل اخذت الحياة كما جاءت»

«هل تخاف عليه، لأنه ولد معاق»

«ذلك يجعلني قلقاً، خاصة بعد ان تبين لي ان تريستاو ولد غير قاسي القلب، بعكسي تماماً. كما ان عليه مواجهة حياة غير اكيدة. انا ولدت هنا، ولما كنت في سن المراهقة، كنت اعتقد ان كل شيء سيدوم الى الابد. لكن، في السنوات الاخيرة الفائتة، طرأت تغييرات كبيرة، وعليّ ان اتقبّل بصورة مستمرة. لذلك، اردت ان يبقى مع تريستاو احد، هنا... امرأة تحبه وتسهر على راحته. كنت افكر بزوجة للقيام بهذا الدور، لكن كان ذلك خطأ جنونياً»

حدقت جين في الفاكهة الموجودة الى جانب القهوة. لم تر او تتذوق مثلها من قبل. التمر الهندي، والعنب الهندي، والموز ذو القشرة الوردية، كلها وضعت على ورقة خضراء من ورق النخيل.

«اذا لم تأكلي من قبل الموز الوردي اللون، ارجوك، ان تتذوقيه. ارى على وجهك بعض العجب.»

«في انكلترا، ليس عندنا سوى الموز الآتي من بلاد الهند الغربية.»

واخذت موزة وقشرتها باعتناء. وقضمت قطعة وهي تشعر ان الدوق ينظر اليها نظرة مليئة بالسخرية. كانت الفاكهة لذيذة الطعم، حلوة وقاسية.

«اليس صحيحاً انك تخافين ان تمدي يدك لأخذ ما ترغبين؟»

«نعم»

«ان هذه الفاكهة طيبة المذاق. هنا يوجد اشياء عدة جيدة للعين والفم. لذا ما عليك الآن ان تستفيدي من وجودك معنا، يا جين.»

«هذا ما سأفعله، ياسيدي. انا متأكدة من ذلك»

كانت تتكلم بلهجة خفيفة، تحاول عدم ملاحظة ما هناك من

غموض وراء كلمات بيدرو. انه يتكلم كأنها مجرد ضيفة وعليها ان ترحل في الوقت المعين. لم يدعها تطلب من السلطات الحصول على اذن عمل. صحيح انها الآن استقرّت في منزل الدوق، واغراضها علقت في الخزائن، لكن ليس عليها الاعتقاد ان وجودها هنا دائم.

«الليل سيبدو لك غريباً، في البداية.»

اخذ ابريق القهوة وملأ فنجانه من جديد.

«ستسمعين اصواتا غريبة: السعادين التي تبحث عن التمر وعويل الايل عندما يصطاده الفهد الاسود. والعصافير الوحيدة تطلق اصواتا غريبة. وفي قلب الادغال، يقوم الهنود بعقد اجتماعاتهم التقليدية. اذا عصفت الريح، تسمعين قرقعة طبولهم. في البداية، تبدو الادغال كأنها عالم مخيف. لكن عندما تستقرّين، وتتعودين شيئا فشيئا حرارة الطقس، سآخذك لرؤية اطلال المایاس: الخرائب الباقية من مدن منقرضة. سترين النباتات العجيبة، واذا ساعدك الحظ ربما تشاهدين الكوندور، وهو النسر الكبير الذهبي اللون، انه من كبار الكواسر ويعيش في هذه البقعة من الارض. ان اتساع جناحيه مدهش للغاية. ويقول المایاس انها جنة تحرسها السعادين لمنع الرجال من الكبرياء.»

«انه عالم يختلف اختلافا تاماً عن عالم انكلترا، لندن، نهر التايمس...الآلة الكاتبة!»

اطلقت جين زفرة وقالت:

«الافضل ان استيقظ من هذا الحلم»

«اسمحي لي ان اقوم بذلك عنك»

انحنى وقرصها عمداً في طرف اصبعها.

«انت واعية، لا تحلمين، لأني شعرتك ترتجفين»

«اصابعك كالحديد»

لكن، في الواقع، كانت جين تشعر بهذه الملامسة وكأنها شعلة ملتهبة.

«وانت انسانة سريعة العطب.»

احاطها بعينيه ثم فجأة وقف وراح يعبر الغرفة. فتح ابواب الخزائن وتفحص محتوياتها الضئيلة.

«لست بالفتاة التي تشعر بضرورة اتباع الموضة بصورة مستمرة، اليس كذلك؟»

تعجبت جين وهزت رأسها بالنفي.

«كما سبق وقلت لك، لي اخت ارتسمت راهبة في البرتغال. لكن قبل ذلك كانت تحب محلات الموضة في الريّو. خزائنها هنا مليئة بالثياب والبدلات والمعاطف. لم افكر من قبل ان اتصرف بها، لكنني اعتقد ان هذه الثياب يمكن ان تفيدك. من المؤسف الاّ يستعملها احد. هل تريدين ان تأتي معي لرؤيتها؟»

عندما نظر الدوق الى جين كانت تتردد في حيرة.

«هل سئمت ارتداء الثياب المستعارة يا جين؟»

«ليس ذلك يا سيدي...ربما شقيقتك لا تحب ان ارتدي ثيابها. انها انسانة غريبة لم يسبق ان عرفتها من قبل»

«ماغدلينا تريد من كل قلبها ان ترى احداً يستعمل اغراضها»

كان الدوق يتكلم بلهجة قاسية، واضعا يديه داخل جيبي سرواله.

هذه المرة لم يأمرها، لكنه كان يريد فقط اقناعها.

«لنفترض...»

قاطعها الدوق قائلا:

«لقد ذهبت منذ سنوات ...»

«فهمت الآن. لا شك انها قامت بخطوة كبيرة باتخاذها هذا القرار النهائي»

«حصل ذلك بعد وفاة خطيبها. فهي امرأة مخلصة. بعكس النساء في امريكا الجنوبية، غالباً ما يضحين بانفسهن. في راهبة ممرضة، اي عندها هدف في حياتها، ولا تمضي كل وقتها بالصلاة او البقاء داخل الدير لا تغادره. لم اكن احب ان تسجن ماغدلينا جمالها وراء الجدران وان يذبل حبها للحياة كورقة على شجرة ميتة. عندما سافرت مع تريستاو الى البرتغال منذ بضعة اشهر، ذهبت لزيارتها والآن يا جين هل اقتنعت بقبول ارتداء ملابسها؟ كانت امرأة تتحلى بذوق رفيع...كما سترين الآن.»

«اوافق يا سيدي»

وافقت جين لم تشعر بانها تحصل على منة. بل تعوّد الدوق رؤية النساء الانيقات. وشعرت بالانفعال لرغبة الدوق ان يراها ترتدي ثياب شقيقته.

«غرفتها في الطابق الاعلى وسانتظرك في الشرفة بينما ترتدين احد فساتينها.هذا المنزل لم تدخله امرأة من زمان، يسكنه رجل عازب نسي بعض اللياقات...»

راح الدوق يفتح ابواب الشرفة ولما خرج كانت الشمس الارجوانية

تغطس في البحر، فلفته بنورها الاحمر كشعلة.

ثم راح يجول بنظره صوب المناظر الخلابة امامه، وهو يدير ظهره الى جين وابتسامة غريبة ترتسم على شفتيه.

مع جين الدوق ينسى ان يلعب دور الرجل الغاوي. ان جسم الفتاة الشابة في ثيابها الرقيقة، لا يؤثر به، وكأنه ينظر الى ولد صغير...لم ينتبه بيدرو الى انوثتها والى بشرتها البيضاء الا بعدما حدق فيها الخادم الهندي الشاب.

تناولت جين تنورة وقميصاً من خزانة شقيقة الدوق واختبأت وراء الباب الكبير وراحت تخلع ثيابها وترتدي الملابس الجديدة. سرّحت شعرها المشعث وتوجهت الى الشرفة حيث كان الدوق يتأمل السماء الملتهبة.

لم ينطق بأي كلمة، لكنه شعر بوجودها. فقال بدون ان ينظر اليها:

«تعالي وانظري الى غياب الشمس، انه شيء رائع»

تقدمت جين الى الشرفة، والظلّ يمتد واسعاً في ساحة الصقر الذهبي. وبدأت تسمع صراصير الليل واخذت مياه بركة الساحة تلمع كالياقوت.

تنشقت جين نفحة من العطر الساحر، وراحت تتأمل جمال اوراق النخيل المنحنية كستائر خضراء، تكاد تلتصق بالارض. كانت تتأمل السماء بانفاس متقطعة، مسحورة. وشيئا فشيئا امتلأت السماء بشتى الالوان، الاحمر، الذهبي، الليلكي الفاتح...

قالت جين بصوت منخفض:

«المنظر أجمل بكثير مما كنت اتصوره»

«ويجب ان اعترف لك ، ان هذا المنظر يسحرني بصورة دائمة»

وراح صوت الدوق يمتلئ بنبرة وفورة تضفي على هذا المشهد اثارة حميمة، ولم تشعر جين من قبل بهذه الرغبة القوية في ان تكون امرأة جذابة.

«فاتحوا الاندلس اعطونا، نحن اللاتينيون، اسلوب الارابيسك، وكذلك هذا الميل للرسم المعقد في نحت الحجر والحديد المصقول. الآن سوف يرخي الغسق معطفه ويستعيد الليل حقوقه. وبعد قليل سيمتلئ الهواء بعطر الازهار، التي ترى ان الشمس قاسية بعض الشيء، فهي تتنفس بحرية في العتمة. كما سوف تأتي الفراشات الكبيرة بسرعة من اعماق الادغال، تستهويها اضواء القناديل والمصابيح الكهربائية»

توقف برهة عن الكلام وادار وجهه لينظر الى جين وجها لوجه.

«الليالي دائما جميلة في هذا الوقت من السنة..جاءت زيارتك في الوقت المناسب».

اجابت بتهذيب:

«نعم، يا سيدي».

لن يعرف ابداً انها جاءت وقلبها الوحيد مستعد للانشراح والبهجة، كما تستعد الازهار للتفتح.

«انني افهم ماذا تقصد...ان الليل رحوم ومتسامح اكثر من النهار، لأنه يخفي العيوب».

«بالعكس، يا جين ، الليل يكشف عن الجوانب المحجوبة في الاماكن والاشخاص.انه تناقض. فالقناع يسقط في الليل. اتريدين القول انك مازلت تلك الانسانة الخجولة والباردة التي التقيتها في فيللا

الصخرة؟ انا، لا اصدق ذلك».

«لكنني ما زلت كما انا».

راحت جين تناقشه، وفي الحال فهمت انه من الخطأ معارضته.

حدق الدوق في جين وجها لوجه. كان وجهه يشبه البرونز الساخن والقاسي. ضاقت عيناه وراح يشدها نحوه بعنف:

«الا تنبضين بالحياة في هذه اللحظة وانت بين يدي، أكثر من اي وقت مضى؟ اجيبيني».

كانت غير قادرة على النطق...فقد انقطع نفسها. واحتلها ضعف مخيف.

«هل انت خائفة كثيراً حتى انك غير قادرة على الكلام؟»

«نـ...نعم».

من المستحيل ان تعترف له ان الحب هو الذي يحبط عزيمتها عندما يلمسها، وليس الخوف.

«اذاً، انا ارعبك؟».

شد على خصرها النحيل وقال:

«نعم، يمكنني ان افصلك عن نفسك. ماذا حدث؟ هل اعتقدت ان السيّد هنا سيتصرف بلا مبالاة او بلباقة؟ لكن نحن في الصقر الذهبي، حدودنا الادغال. اذا كنت غاضباً او فرحاً، فانني اظهر ذلك. اما انت يا جين، فانت تكبتين شعورك».

«لقد تربيت على ان اكون هكذا».

استعادت جين بعضاً من نشاطها. وفي تلك اللحظة راح قلبها يخفق بسرعة فائقة وكانت قميصها الناعمة ترتج مما جعل الدوق يستدرك ما يجري في داخلها. فقد كانت شديدة القرب به.

«يبدو لي ان التهذيب يقضي بي الا اتظاهر واعلن رأيي كما ليس من الادب ان اضع زهرة في شعري وارقص حافية القدمين يا سيدي انك تستخدمني لأعتني بابنك وحسب».

«نعم، لأنني كنت اراك شابة لم تنضج كفاية لتصبح عانساً تسجل يومياتها في دفتر المذكرات وتملأه تفاصيل سخيفة.»

«كيف عرفت انني اسجل يومياتي؟»

حاولت جين ان تبدو مترفعة لكنها ظلت تتخيله يرعب ينظر الى الزهرة التي وضعتها بين صفحات الدفتر.

«لقد رأيته على الطاولة قرب الاريكة. اراهن انك بدأت بتسجيل وصولك الى هنا، اليوم».

«نعم، فليس كل يوم تدخل انسانة مثلي مثل هذا المنزل الاصيل».

«انسانة مثلك؟ هل تعتبرين حالك امرأة فريدة؟»

لهجته الساخرة والوقحة جعلت جين تحمر خجلا. كانت الشمس تضفي عليها اشعتها الاخيرة قبل الغروب.

اجابت جين:

«انا لست بالضبط صورة الاغراء، لست انسانة ترفع من مقامك مثل...لست تلك الانسانة التي يمكنها ان تحل مكان...»

اجابها بسخرية:

«لم آت بك الى هنا لتقومي مقام الزوجة، اكنت تعتقدين ذلك؟»

«ارجوك...لا تكن قاسياً».

كانت ترتجف من الالم، وهي تحاول الابتعاد عنه. لكنه كان يشدها بعنف واصابعه تغرز في جلدها كأنها من الحديد

«انت...انت تلعب بالكلمات وتغيرّ معنى كلماتي، لأنني عارضتك

حيال نقطة تافهة. انت تمثل دور الظالم المستبد.»

«انا امثل، يا جين؟»

رمقها بعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان الفهود السود عندما يتفرسون بطريدتهم.

«انا نفسي، بيدرو دي زانتو، انني اتصرف معك لأنك انسانة من لحم ودم، لا ممسحة اطأ عليها. انني اناقشك لأني اعتقد انك انسانة ذكية. وللأسف اذا كنت تعتبرين ذلك من عمل رجل ظالم مستبد. انت تريدين معلماً لا...صديقاً.»

كانت كلماته تجعل جين مضطربة بشكل عميق... اذ تعودت ان تعامل بشدة وعنف، مما جعلها تعتقد انه يتصرف معها بطريقة مادج ولارين. لم يخطر ببالها انه يريدها صديقة لا خادمة.

كانت تنظر اليه بحنان وانفعال عندما ابتعد عنها فجأة.

«هكذا، يا جين، ستكونين ايضاً رفيقتي. يصبح المنزل وحيداً بعد غياب الشمس. كل مساء ستتناولين معي طعام العشاء، وتتكلمين معي، اريد ان اتعرّف اليك...خلال الوقت القصير الموجود امامنا.»

ارتعش قلبها، وخافت ان تفقد قواها.

«عملي لديك لن يكون مستقراً وبشكل دائم؟»

«لا شيء يبقى بشكل دائم في هذه الايام. تعالي، هيا بنا نجلب بعض ملابس السهرة و...يا جين، لا تخافي من ان تحدثيني بحرية، فلن اؤذيك».

حاولت جين الابتسام. لقد اصابتها صدمة عندما علمت ان وجودها هنا في الصقر الذهبي ليس سوى فاصل زمني في حياتها.

٨ ـ يدان باردتان، قلب حار

صعد الدوق الى الطابق الاعلى، فتبعته جين. وما ان وصلا الى الممر المؤدي الى جناح شقيقة الدوق، حتى اشتعلت الانوار الكهربائية. فاخبرها الدوق ان منزله مزود بمولد كهربائي خاص. لكن عندما تسوء الاحوال الجوية، يتعطل المولد فيستعملون القناديل التي تضاء بالزيت.

كانت ابواب الغرفة المطلة على الممر مصنوعة من خشب الارز المنحوت. وارتعشت جين كأنها ترى شبح ماغدلينا.

يبدو ان الدوق ما يزال يحن الى شقيقته في هذا المنزل الضخم. فباستثناء تريستاو ليس له اهل مقربون. الم يقل ان المنزل يصبح وحيداً عندما تغيب الشمس. وجين كانت تشعر بهذه العزلة.

كبس الدوق على الزر الكهربائي. فاشتغل الضوء. وراحت جين تتأمل باعجاب تلك الغرفة ذات الجمال النادر.

هنا، الاثاث بلون الذهب، ومرصع بخشب الورد. كل شيء انيق وظريف. الستائر الحريرية الزرقاء والفضية تنسدل في طيّات ثقيلة. والسجاد الذي يكسو الأرض من لون الستائر. وعلى منضدة الزينة قوارير من الفضة والبلور تنعكس اضواؤها على المرايا الثلاث في

الغرفة.

هذه الغرفة المهجورة، التي لم يسكنها احد منذ ذهاب ماغدلينا، ما زالت برونقها ونظافتها. كأنما الدوق ما زال يأمل ان تعود ماغدلينا يوماً.

فتح باب الخزانة الكبرى، فظهرت منها الثياب الجميلة. وشعرت جين بالعطر يتصاعد، فلا شك في ان شقيقة الدوق كانت تحب الثياب الجميلة والمجوهرات الثمينة.

نظر الدوق الى هذه الثياب كأنه يتخيل ماغدلينا وهي ترتدي هذا الثوب او ذاك. ثم ادار وجهه العابس وبايماءة من رأسه اشار الى جين بالدخول الى قاعة الاستقبال المجاورة المتصلة بالغرفة. وهنا إيضاً كان الاثاث انيقاً وفريداً: اوراق بيضاء تزين السجادة الحمراء، ووسائد حمراء عدة موضوعة على الكنبة المخملية الرمادية اللون.

«هذه صورة ماغدلينا».

جذب الدوق انتباه جين الى جدار ملبس بالخشب. وانتابتها صدمة خفيفة عندما نظرت الى عيني الفتاة الشابة. كانت صورتها مرسومة على لوحة اطارها من العاج. اعجبت جين بخطوط عينيها الجميلتين ورموشها السوداء الناعمة. وكان وجهها مليئاً بالحيوية. بدون ان يكون جميلاً بالضبط وكانت ترتدي فستاناً احمر يظهر نحافة جسمها ورشاقته، وزهرة بيضاء برية تزين خصرها.

تنهدت جين قائلة:

«انها جميلة جداً. تذكرني بتريستا ...»

قال الدوق بكل هدوء:

«بالطبع، لم لا؟ فهي شقيقتي».

«اني افهم مدى حزنك لأنها هجرت هذا البيت».

«انها تابعة لدير عذارى الوحدة. وانا اعرفها جيداً، لذلك لا يمكنني القول بأنها حقاً سعيدة. لكن هذا لا يمنعني من التفكير في ان سعادة المرأة تتعلق بالحب الذي يربطها بالرجل. لكن شقيقتي مصرّة على انها لن تجد الحب مرّة اخرى... لقد مرضت وبقيت طريحة الفراش لأشهر عديدة. وبعدما شفيت، غادرت البرازيل هرباً، وعلمت بعدها انها لجأت الى دير عذارى الوحدة في البرتغال. لحقت بها، وحاولت اقناعها بأن تعود معي الى البرازيل. لكنها رفضت... كانت على وشك الانهيار ونصحتني رئيسة الدير بأن انتظر».

هزّ كتفيه العريضتين واضاف:

«ربما تستغربين اذا قلت لك انه لو سمحت لي رئيسة الدير بأن اصطحب ماغدلينا معي، تلك الليلة، لرفضت العودة الى الدير بشكل نهائي. لقد قلت لها «ابقي هنا في البرتغال، لست مجبرة على العودة الى البرازيل». كانت تبكي كأن قلبها تحطم وعالمها اصابه الدمار. كانت دائماً شديدة المرح. لم اعتقد يوماً بأنها ستصاب بصدمة كبيرة على اثر وفاة خطيبها في البيرو. وما كنت اظن انها قادرة على ان تحب انساناً الى هذه الدرجة. كانت تسحرها اشياء اخرى عديدة: الحياة، التبرّج، ركوب الخيل، المسرح، السهرات...»

وتوقف الدوق فجأة عن الكلام وغادر غرفة الاستقبال ليدخل غرفة نوم شقيقته.

تناول من احدى الخزائن بعض الملابس، بحركة غاضبة وقال:

«تعالي، هذه الثياب لك، انت سمراء والالوان التي كانت تحبها تليق بك، وكذلك الوان الحجارة الثمينة: الياقوت الاحمر والزمرد... انا متأكد انه لم يسبق لك ان أبرزت جمالك: هاتان العينان الخضراوان وهذه البشرة البيضاء. اما الآن فما عليك الا ان تحاولي يا جين. سوف تقبلين وتقولين اني انسان قاس وظالم، اليس كذلك؟»

لحقت جين بالدوق الذي غادر الغرفة بعد ان اطفأ النور واغلق الباب، تاركاً صورة ماغدلينا في العتمة.

دخل غرفة جين والقى بالملابس على السرير.

«من الآن فصاعداً، هذه الملابس ملكك. ماغدلينا هي الآن الراهبة ماريا».

تلألأت عيناه وحدق في جين بنظرة شرسة وقال:

«اتدخلين الدير اذا انقلب العالم ضدك، يا جين؟»

«انا... لا اعرف، سيدي».

كانت جين تبدو رصينة، متحفظة... وبدا الاضطراب في يديها المشدودتين وراء ظهرها.

«لم اكن مرّة اشبه النساء اللواتي يعشن مغامرة عاطفية ذات نهاية دراميّة. شقيقتك امرأة جذابة، اما انا، فلا اجذب الرجال، يا سيدي».

راحت عينا الدوق تنظران اليها في دقة ثم توجه نحو السرير واختار ثوباً طويلاً من المخمل الاخضر.

«ما عليك الآ ان ترتدي هذا الثوب فتغيّري رأيك بنفسك، المرأة تبدو جميلة وانيقة اذا ارتدت فستاناً جميلاً».

بعدما غادر الدوق المكان، بقيت جين جامدة لا تتحرك. كانت

لا تزال تحت تأثير دوامة الانفعالات التي ارهقتها.

ما جدوى البقاء هنا، فاغرة الفم امام الفساتين المكدسة على السرير. من الأفضل البدء بتعليقها لتظل انيقة. وما ان لمست يد جين الفساتين، حتى فكرت انها لن تتجرأ وترتديها. ستبدو مثل غراب يتزيّن بريش الطاووس.

تناولت فستاناً من اللون الاخضر الغامق، وهو الثوب الذي اختاره الدوق، فهو من المخمل الناعم، طويل، من طراز القرون الوسطى: الاكمام الواسعة والطويلة والقبة العالية التي تنتهي بقبعة... لون الفستان يليق بها ويتسجم مع لون عينيها، لكن جين لن تتجرأ على ارتدائه. هزت رأسها واغلقت باب الخزانة تاركة الفساتين البراقة في وحدتها. عليها ان تنسى وجود تلك الفساتين الفضفاضة وتهتم بتريستاو الذي لا بدّ ان يكون استيقظ ويريد تناول العشاء.

عندما دخلت جين الى غرفة الصبي، كان جالساً وسط السرير، يلعب بطائرة صغيرة، يغرزها في بطانيته ثم يرفعها عاليا لتطير محدثة ضجيجاً. ولما رأى جين، ابتسم لها وقال:

«هل تعجبك طائرتي، يا آنسة؟ اشتراها لي ابي عندما كنا في البرتغال، نزور عمتي. اليست رائعة؟ انظري الى الرشاش في برج المرمى».

«انها رائعة حقاً».

ابتسمت جين وجلست على طرف السرير وراحت تراقبه. خصلات شعره الاسود القصير المشعث وعيناه الذهبيتان تلمعان بالراحة. انه يشبه شقيقه الدوق شبهاً كبيراً. فليس غريباً ان يحتفظ

به والده، بدون الالتفات الى الشائعات.

سألت جين الصبي:

«ما رأيك لو ارتديت ثيابك وهيأت نفسك للعشاء؟ لا بدّ انك جائع يا تريستاو. الحب ان تأكل شيئاً معيناً».

راح الولد يفكر وهو يداعب طائرته ويحدق بجين. ثم سألها:

«هل تتناولين طعام العشاء معي؟ جرت العادة ان آكل وحدي، لأن ابي يتناول عشاءه متأخراً، وغالباً ما يجلس في مكتبه ويعمل. هل تحبين ابي يا آنسة؟»

فوجئت الفتاة بهذا السؤال، لكنها تمالكت نفسها بسرعة. يجب ان تعتاد على اسئلة هذا الصبي الوحيد، الذكي والكثير الفضول.

اجابته قائلة:

«والدك رجل لطيف ومهذب، يا تريستاو، وانا احترمه جداً. واعرف تماماً انه يكن لك حباً كبيراً».

«اليس عندك والد يحبك؟»

اجابته جين وهي ترفع خصلة من شعره عن جبينه الاسمر الناعم:

«مات والدي من زمان».

«ووالدتك... هل ماتت مثل والدتي؟»

لم تكن تتوقع سؤالاً كهذا. فهي تعرف ان والدة تريستاو ما زالت حيّة ترزق. لا شك ان بيدرو جعل ابنه يعتقد بأن والدته ماتت. وبرغم كل ما حدث فأنه من الظلم ان يتمّ التفريق بين ام وولدها هل كان الدوق يخشى ان تقوم والدة تريستاو باختلاس حبه للصبي، لأنه لم يعد يحبها؟ هل هو ظالم الى حدّ رفض فكرة ان يتقاسم من

يحب مع انسان آخر؟ او هل ان فقدانه لماغدلينا جعله يخاف من اي تدخل يحصل بينه وبين تريستاو؟

حبست جين تنهداتها. فهي لن تفهم ابدا هذا الرجل الغامض والذي وقع عليه قلبها.

«ماذا تريد ان تختار للعشاء؟»

راحت جين تلملم جوارب تريستاو وتساعده على ارتدائها. فقد لاحظت بحزن تشوّه رجله المصابة.

اجاب تريستاو:

«اعتقد انني افضل بعض الفطائر بالزبدة والمربى».

«هذا يبدو طعاماً شهياً. هل يجب ان ارنّ الجرس لطلبه؟ لم اتمرّس بعد على سير الامور في هذا المنزل ولا اريد ازعاج الخدم».

اجابها بنبرة متكبرة:

«ابلغهم ابي انك رفيقتي. سأقرع الجرس وسيأتي جوستوس واطلب منه ان يحضر لنا بعض الفطائر. ربما تعتادين على ذلك، يا آنسة».

«شكراً جزيلاً يا تريستاو، انت لطيف جداً. ان لغتي البرتغالية سيئة للغاية، واحتاج الى بعض الوقت لأصبح قادرة على التحدث مع الخدم. هل بين الخدم من يتكلم الانكليزية، طبعاً ما عدا كبير الخدم المتعجرف؟»

«كلا، الجميع هنا يتكلمون لغتهم المحلية، ما عدا البدائيين الذين يفهمون بالاشارات. وذلك لأنهم اتوا من الادغال حيث يتكلمون بايديهم، حتى لا يحدثوا به ضجة تفسد عملية الصيد. يقول ابي ان الهنود المايابي يتمتعون بنظر وسمع قويين، كالاسد. فهو يعرف ذلك

تماماً لأنه غالباً ما يذهب الى الصيد معهم. عندما اصبح اكبر سناً سيأخذني معه، لكن لا يمكننا ان نأخذك معنا يا آنسة. فلا يحب الهنود وجود النساء في رحلات الصيد».

«ما قلته لم يزعجني ابداً».

ولفت نظر جين جلد نمر كبير الحجم، اشقر اللون، موضوع على الارض قرب سرير تريستاو.

«قتل ابي هذا النمر الذي يفترس الاولاد الصغار في الادغال. يمكنك رؤية مكان الرصاصة، في الدماغ. لم يتألم الحيوان وجلده لم يتلف. لوالدي تجارب كثيرة».

قالت جين في نبرة جافة:

«بكل تأكيد. والآن يجب ان تقرع الجرس ليجلبوا لنا العشاء. اغسل يديك ووجهك جيداً، بينما اطالع هذه الكتب. هل سبق ان كان لديك رفيقة او مربية، يا تريستاو؟»

التفت نحوها وهزّ رأسه قائلاً:

«ابي يجيء الدروس ويسمعني اقرأ. اذهب الى مكتبه ساعتين كل يوم. هذا اذا لم يضطرّ الى التغيّب عن المنزل لعدة ايام».

قطب تريسلو حاجبيه وعض على شفتيه.

«احياناً يذهب في المساء، ولا اعرف اين يذهب. لم يكن يفعل ذلك من قبل، يا آنستي. وبسبب هذا العمل الاضافي الذي يقوم به، اضطر الى ان يطلب منك ان تكوني رفيقتي».

اجابت جين وهي تبتسم:

«نعم، بكل تأكيد. لا يحب والدك ان يتركك وحدك، لكني اعتقد انه

يجبر على ذلك».

وراحت جين تسأل نفسها:

هل يخرج ليلا من اجل القيام ببعض الاعمال أو أن هناك سبباً آخر؟ هل هو على علاقة مع أمرأة، يفضّل الأ يخبر تريستاو بها؟ هذا يفسر حاجته المفاجئة الى انسان يثق به من أجل البقاء مع تريستاو ليلاً نهاراً، عندما يكون غائباً عن المنزل.

شعرت جين بألم غريب في قلبها. ان رجلاً مثل الدوق لا يمكنه ان يعيش حياة ناسك...

كان تريستاو يبدو صغيراً ونحيلاً فى بيجامته الحريرية... نصحته ان يأكل الفطائر كوجبة ثانية على ان يبدأ بأكلة شهية مثل لحم الغنم المطبوخ بالبصل والبندورة الذي يقدم مع البطاطا الصغيرة المقلية مع الجبن.

قالت جين مبتسمة:

«لا بدّ انك جائع مثلي، يا صديقي».

«هل ستتناولين طعام العشاء معي، يا آنسة؟»

وهنا سمعت طرقاً على باب الغرفة. كان جوستوس يجيب على قرع الجرس. اشارت جين برأسها الى تريستاو الذي راح يطلب العشاء بسرعة، في لغة لا يمكن لجين ان تفهم منها شيئاً.

كان الخادم الهندي الشاب يحدق بجين في كثير من الفضول. وكانت هي تنظر اليه بهدوء. كانت تفهم ان هؤلاء الهنود الماياس يشعرون بالحرج تجاهها، ولكي تحظى بصداقتهم، عليها ان تحافظ على هدوء اعصابها.

همس جوستوس بكلمة الى تريستاو، ثم خرج من الغرفة.

القت جين نظرة استفسار الى الصبي الذي رد عليها بغمزة ساخرة وهو يقول:

«قال جوستوس عيناك تشبهان حجارة التنين، يعني انها تشبه الزمرّد، يا آنستي».

«حسناً، لا اعرف اذا كان ذلك ذماً أو مدحاً. على كلّ حال، آمل الأ اكون اشبه التنين... هل انت حقاً سعيد بوجودي معك هنا؟»

اجابها تريستاو وهو يمسك بيدها ويضعها على خده. لا حاجة له ان يعبّر بالكلمات. وفهمت جين في الحال انه يرغب بها وانه بحاجة ماسة الى حنانها.

سألها تريستاو وهو ما زال متعلقاً بيدها:

«وأنت، يا آنسة؟ هل انت سعيدة بوجودك هنا؟ انك باقية معنا، أليس كذلك؟ لن تذهبي... او على الأقل ليس قريباً؟»

وعدته جين بأنها لن تغادر قريباً. لكن عليه ان يفهم ان اقامتها هنا ليست بصورة نهائية.

«غداً نعرف كل شيء في الصقر الذهبي. اما الآن، فيجب ان نتناول العشاء. وبعد ذلك سنختار كتاباً نقرأه معاً. اراهن انك تحب الكتب التي احبها، اي كتب المغامرات والاسفار».

هزّ تريستاو رأسه، ثم دخلا معاً الحمام وهو لا يزال ممسكاً بيدها.

في غرفة الحمام مغطس كبير واسع. وعلى احد الرفوف بعض البواخر التي يلهو بها في الماء عندما يأخذ حماماً. فتحت جين حنفية الماء الساخنة لتملأ المغطس وقالت:

«اعتقد انه يجب ان ابقى معك عندما تأخذ حماماً، اليس كذلك؟»

احتج تريستاو قائلا:

«لست طفلاً. تعلمت السباحة من زمان. قال الأطباء لأبي ان السباحة تفيدني. عادة يكون ابي هنا عندما استحم. يراقبني ويتأكد من اني اجفف جسمي جيداً. وعندما يكون والدي مشغولاً يكون معي جوستوس».

وضعت جين بعض الصابون على ليفة ناعمة وراحت تغسل وجه تريستاو ويديه. ثم اعطته منشفة وسألته:

«قل لي يا تريستاو، الم يكن هناك امرأة تهتم بك قبل مجيئي؟»

«نعم، عندما كنت صغيراً... وبسببها، انا...»

عضّ الصبيّ على شفتيه والقى بنظرة الى رجله المعطوبة واكمل:

«كلمني عنها خادم السيدة فيليسيا... قال لي انها اخذتني معها في السيارة وادخلت السيارة في الجدار. اذكر انني كنت محجوزاً في احد المقاعد وشعرت ببعض الالم. وعمتي الراهبة جاءت من البرتغال لتبقى معي في المستشفى... كانت الدموع تتساقط من عيني ابي باستمرار ولم تشف رجلي بشكل نهائي. لكنني لم اعد اشعر بأي ألم فيها، وهذا شيء جيد».

«نعم، يا حبيبي».

كانت جين تمشط شعره بهدوء.

«هل تعرف ماذا حلّ بمربيتك؟»

«قال لي سانشو الخادم انها قتلت. وقالت لي فيليسيا انها لو لم تمت لكان والدي وضع حداً لحياتها. عندما يغضب والدي يصبح انساناً

ظالماً وعنيفاً. يقول جوستوس ان عيني والدي تشبهان عيون القطط الوحشية، التي يجب الاحتراس منها».

لم تستطع جين ان تمتنع عن الابتسام، برغم تفكيرها بالمأساة التي حصلت. اترى ماذا كان سيحدث لو مات الصبي وعاشت المربية؟

عادت جين مع الولد الى غرفته. جلسا معاً امام الطاولة وراحا يأكلان بشهية ويتمتعان بالطعام اللذيذ الذي احضره جوستوس على صينية فضية. وكان تريستاو يطرح الكثير من الاسئلة لمعرفة المزيد عن انكلترا وخاصة عن العاصمة لندن.

اكتشفت جين كم هو لذيذ العيش برفقة ولد. ومضى الوقت وهما يتبادلان الحديث. ثم حان وقت النوم لتريستاو، فوضعته جين في سريره وراحت تبحث في مكتبته عن كتاب باللغة الانكليزية لتقرأ له بعض الفصول. وجدت كتاباً عن الاسفار يدعى «اسفار غوليفر». وفي الصفحة الاولى اهداء: «الى ابني بيدرو، مع حبي، الماما».

كتاب انتقل من الوالد الى ابنه... كانت جين سعيدة بأن تقرأه. هذا ما حصل عندما كان بيدرو صبياً. اذ سمع تريستاو، صوت امرأة تقرأ له كتاباً قبل ان ينام.

بعدما انتهت من قراءته، اغلقت جين الكتاب وراحت تراقب وجه الصبي النائم على وسادة بيضاء مطرزة بشعار العائلة: الصقر الذهبي الذي يحمل في مخالبه سيفاً وزنبقة.

كانت رموش تريستاو تشبه خيوطاً حريرية سوداء فوق بشرته السمراء الناعمة.

نهضت جين واعادت الكتاب الى مكانه. في المكتبة عدد كبير من الكتب القديمة والحديثة: كنوز واساطير، اكتشافات البيرو... الى ما هناك من قصص تاريخية للأطفال.

فتحت جين كتاب اكتشافات البيرو فسقطت منه ورقة. كانت قطعة من رسالة. اعادتها الى الكتاب برغم شوقها الى معرفة كل شيء عن آل زانتو، لكنها وعدت بأن تبقى كتومة.

البيرو، المعروفة بآثار قبائل هنود الاينكاس وبالاساطير الغريبة... في تلك البلاد قتل خطيب ماغدالينا. وشعرت جين بأن الشؤم يلاحق العائلة، كأن احداً في الماضي صبّ اللعنة على الدوق بيدرو وعائلته.

احست جين برعشة في داخلها. وضعت الكتاب مكانه وعادت تقف امام سرير تريستاو. كان ينام بهدوء. انحنت فوقه وبكل حذر لمست بشفتيها شعر رأسه. فتحرك الولد وهمس وهو مغمض العينين: أبي...

خرجت جين من غرفة تريستاو لتتوجه الى غرفتها. وراحت تتساءل لماذا لم يأت الدوق ليرى ابنه ويقبّله ويقول له تصبح على خير. عندما كانت مع تريستاو، سمعت صوت حوافر حصان في باحة المنزل. فخيّل اليها ان زائراً ما حضر الى المنزل، او ان الدوق خرج. كانت جين تشعر بقليل من التوتر، فقررت عدم الذهاب تواً الى غرفتها وراحت تتنزه في الممرّ الذي علقت على جدرانه لوحات تمثل افراد العائلة. لا يلاحظ احد وجودها. فهي ما زالت غير اكيدة من نفسها لتغامر بالنزول الى الطابق الارضي، الى مدخل المنزل، لأن الدوق قد

يكون هناك مع الزائر، وهي تريد ان تتحاشاه.

راحت جين تذرع ارض الممّر وهي تنظر الى وجوه اسلاف الدوق، المتعالية والفخورة.

توقفت في الظل، قرب فتحة نافذة تتدلى منها الستائر الفخمة. جلست على الطرف العريض. كان الليل يطوق المنزل جالباً معه اصواتاً قوية: حفيف اوراق الشجر، خطوات الخادم الصامتة، زئير الاسد، ضربات اجنحة الخفافيش. كل هذه الاصوات تزيد من توتر اعصابها وحساسيتها. لم تكن تشعر بذلك عندما كانت تعيش مع عمتها. ولم تشعر بالحياة تنبض في داخلها الا بعد وصولها الى الصقر الذهبي، مثل نبتة تستقبل دفء الشمس للمرّة الاولى.

كانت تائهة في افكارها لدرجة انها اهتزت بشدة لدى رؤية ظل كبير يرتسم قربها. فالتفتت وهي تعتقد بأنها سترى احد الخدم. لكنها رأت سيّد المنزل، يرتدي سترة عنابية وسروالاً اسود. كان يدخن السيكار. وجين راحت تتأمل شعره الاسود المجعّد، وجبهته وعينيه البراقتين تحت رموشه السوداء.

قال الدوق:

«انت اذاً هنا. ارجو ان تكوني قد تناولت طعام العشاء. يا جين».

«نعم. شكراً يا سيدي، تعشيت مع تريستاو».

«جاءني زائر غير منتظر، والا كنت تناولت طعام العشاء معك. في الطابق الأرضي. كان حديثنا عن الاعمال. وخشيت ان يصيبك الملل لو كنت معنا. هل كان تصرف تريستاو خلال العشاء مشرّفاً».

«نعم، وأنا سعيدة ان ابلغك ذلك».

ابتسمت جين، وهي ما زالت مضطربة من سحر الدوق وأناقته. وتمنت لو انه لا يلاحظ اضطرابها.

«بعد ان انهى تريستاو وجبته الاولى، عاد واكل اربع فطائر بالزبدة والمربى».

«أه، نعم، انه يحب اكل الفطائر. لكنه احياناً يشعر بشهية مفاجئة. كنت دائماً آمل ان تشفى قدمه بصورة نهائية. لكن، للأسف فأن وتر كاحله مشلول. اخذته عند اطباء مختلفين، غير انني اقتنعت في النهاية بأن الامر ميؤوس منه. تريستاو ولد ناعم ولطيف، اليس كذلك؟ انه لا يتأفف من ايّ شيء».

«انه ولد رائع. لقد صرنا صديقين. قال لي...»

توقفت جين عن الكلام، مترددة ثم قالت:

«انا لم اسأله شيئاً. لكنه هو الذي اخبرني كيف حصل له الحادث».

«انني واثق من انه يجب ان تعرفي السبب. كان عمره ثلاث سنوات، وعهدت الى مربية لترعاه، وتسهر على راحته. كنا نعيش في ذلك الوقت في الريّو وكنت اسمح للممرضة المربية أن تأخذ تريستاو معها كلما خرجت للتسوّق او للسباحة. كنت في مكتبي عندما علمت بالحادث. لقد تحطمت السيارة على حائط قرب الشاطىء. ماتت الممرضة. وفي البدء كنا نعتقد ان الولد لن يعيش في المستشفى قدمت له بعضاً من دمي. ومع مرور الوقت بدأت صحته تتحسن، وصار قادراً على تحمل اجراء جراحة في رجله المحطمة. يا الهي! كم كنت اتعذب وانا جالس انتظر واتساءل ما اذا كان الولد الذي أحببته سيموت وهو في الثالثة من عمره».

اخذ الدوق نفساً من سيكاره ثم اضاف:

«بعد الحادث، صرت احافظ على تريستاو بقربي في اكثر الاحيان. منذ وقت قليل بدأت افكر... آه! يكفي ان اقول لك، يا جين، انني سعيد جداً لانك قبلت ان تكوني هنا، معنا. وكذلك فأنني مسرور لكما، انت وتريستاو، اصبحتما صديقين. كنت اعرف ذلك. في داخلك شيء ما يجذب الاولاد... الحنان، والعينان الخضراوان. اني آسف لأنني لم اكتشفك من قبل».

انتفض قلب الفتاة لدى سماعها هذه الكلمات، برغم انها فهمت ماذا يقصد. انها لو اهتمت بتريستاو وعندما كان عمره ثلاث سنوات، لما حصل له هذا الحادث.

«لماذا جئت الى هنا؟»

نظر الدوق الى الظلال التي تعكس خيالها على اللوحات والجدران واضاف:

«الا تحبين غرفتك؟»

«أه نعم، إنها غرفة جميلة جداً يا سيدي، لكنني كنت أشاهد هذه الصور لأسلاف آل زانتو».

قال الدوق وابتسامة ساخرة على فمه:

«احذري مجرى الهواء، ان الليالي باردة. تعالي معي الى غرفة الاستقبال لتحتسي فنجان قهوة قبل ان تذهبي الى النوم».

مد لها يده يساعدها على النهوض. وشعرت بأصابعه النحيلة تشد على اصابعها فارتجفت وسرعان ما حاولت جاهدة ان تخفي حقيقة انفعالاتها.

قال لها الدوق:

«يدك باردة، يجب ان تتناولي فنجان شاي ساخن».
«افضّل... افضّل ان انام، يا سيدي».
كانت جين في حاجة الى مزيد من الشجاعة لترفض طلب الدوق. واضافت تقول:
«كان النهار طويلاً. وفي ايّ حال لم اشعر يوماً بالحرارة في يديّ».
«يدان باردتان قلب حار، يا جين؟»
حدق الدوق فيها وعندما لاحظ علامات الارهاق حول عينيها، اضطر الى الخضوع لرغبتها ورافقها حتى باب غرفتها.
«تصبحين على خير، يا آنستي».
«شكراً يا سيدي، تصبح على خير».
فتح الدوق الباب ودخلت جين غرفتها. انحنى لها قليلا قبل ان يذهب. كل ما بقي من اثر الدوق بعدما اغلقت جين الباب، رائحة سيكاره، التي تسللت معها الى الغرفة وبقيت فيها تعذبها.

٩ ـ على صدرها زمردة

مضى على وجود جين في الصقر الذهبي سبعة عشر يوماً، وهي ما تزال تشعر بالسعادة لأقامتها في منزل يقع قرب الادغال التي لا تراها الأ من بعيد، وذلك عندما تقضي مع تريستاو بعض الوقت في الشرفات العالية.
كانت تهتمّ بتريستاو من التاسعة صباحاً حتى الظهر، ثم يتناولان طعام الغداء، ولمدة ساعة تقريباً، كان تريستاو يمضي فترة من الوقت مع والده الدوق الذي يعلّمه تاريخ البرتغال وبعض الحساب. ثم تستأنف جين الاهتمام به.
هذه الحياة المنظمة كانت لطيفة. لكن الآن، بعدما تعرفت على المنزل والحدائق التي تحيط به، بدأت جين ترغب في التعرّف الى ما يجاور المنزل. خيّل اليها ان الدوق يفضل ان يراها وتريستاو، في امان داخل البيت، فهو لا يزال يحترس: فماذا لو كانت هي أيضاً طائشة، كالمربية الاولى؟ فكرت جين انه من الافضل احترام امنيات الدوق في الوقت الحاضر على الاقل.
لكن المكان يبدو في غاية الجمال والجاذبية، لذا قررت جين في صباح احد الايام ان تستجمع شجاعتها وتسأل الدوق ان كان

يسمح لها باستكشاف الجوار، وان تذهب للنتزه عندما يأخذ تريستاو قيلولته. وستعده بعدم الذهاب بعيداً، وسط الاشجار الرائعة التي تعانق النباتات المتسلقة من الشرفة. كانت البلدة تبدو لها جنة خضراء. وكانت تتمنى لو ان الدوق يتذكر ما وعدها به عندما قال انه سيأخذها الى الادغال بنفسه.

وبدلا من ان يذهبا الى شاطئ البحر، كانت جين وتريستاو يسبحان في الحوض التابع للمنزل. فاذا سمح لهما الدوق بالذهاب الى الشاطئ، عليهما سلوك درب ضيقة متعرجة، درجاتها صلبة ووعرة. ولن تتمكن هي وتريستاو من عبور هذا الممر وسيضطر احد هنود المايابس ان يحمل تريستاو، وجين تعرف جيداً ان الصبي يكره ان يلفت الانتباه الى عاهته.

كان البحر يبدو بارداً، لكن ذلك لا يخيف الدوق، لقد رأته مرّات عدة عائداً من سباحة صباحية، المنشفة على كتفيه، وشعره الاسود يلمع كجناح غراب.

كانت جين في حاجة الى شجاعة فائقة لارتداء الثياب التي فرض عليها الدوق ان تلبسها. اختارت الثياب البسيطة. وبدأت تحب ان تكون انيقة الملبس وخاصة عندما تكون مع الدوق. كان الطاهي ناجحاً في اعداد الطعام الذي كان يختلف من يوم الى آخر: المآكل البرتغالية والفرنسية واحياناً الانكليزية حتى لا تشعر جين بغربة تامة، او ربما لأن الدوق يحب روستو البقر والخضرة منذ ان كان يدرس في انكلترا

كانت جين تشعر، قبل ان تأتي الى الصقر الذهبي بأن الدوق رجل رقيق ومهذب. لكن تبين لها الآن انه يتمتع الى جانب ذلك بثقافة واسعة. لديه معلومات عن كل ما يتعلق بالفن والموسيقى والادب. وكان يبدو سعيداً وهو يفتح امام جين افاقاً جديدة.

مكتبته الغنية تحت تصرف الفتاة. وكانت عندما تشكره، يرد عليها بحدة، انه كلما تعلمت اكثر استفاد تريستاو منها اكثر.

احياناً، بعد العشاء الذي يعتبر الوجبة الاساسية الطويلة في اميركا اللاتينية، كان الدوق يأخذ جين الى مكتبه لتناول القهوة. على جدران المكتب لوحات ومحفورات قديمة وحديثة. لا وجود لقطعة تافهة القيمة. وكان الدوق يطلع جين على اسرار الرسم الفني الرائع.

بدأت جين تجد ان هذه السهرات هي اثمن من الذهب او الحجارة الكريمة. لم تكن فقط تتعرف الى انتاج الفنانين او الكتاب، انما كانت تكتشف وجهاً آخر من شخصية الدوق، وهذا كان يعجبها. اضافة الى وجود الدوق الى جانبها.

بعد هذه السهرات كانت جين بحاجة الى ان تبقى مستيقظة في سريرها وان تعيش من جديد كل لحظة مرت بها، واستعادة كل الحركات التي بدرت عن بيدرو. انها تلميذته، كما تريستاو تلميذها... لكن في وحدة الليل، كانت تركز تفكيرها على الدوق وحده وترمي بذراعيها الفارغتين على جانب السرير الكبير.

لقد وقعت في غرام الدوق وهي كذلك تحترمه. وهذان الاحساسان عندما يجتمعان، ينجم عنهما عذاب ولا اجمل.

في احدى الامسيات، وقفت جين تتأمل باعجاب مكتب الدوق

الجميل الملبس بالاوراق الغريبة.

«هكذا اذاً، الادغال تجذبك».

كان الدوق قد سكب فنجانين من القهوة وقدّم اليها واحداً.

النار تشتعل في الموقد الكبير المبني من حجر القرميد. وكانت السنة اللهب تلقي بظلها على المكتبة وعلى اللوحات المعلقة في الجدران. والدوق يرتدي سترة عنابية ويجلس على كنبة ضخمة. فتح علبة مصنوعة من الخشب الاستوائي وتناول سيكارا، لفه بين اصابعه وقال:

«هل تقلقك الاصوات الايقاعية التي تحدث في الليل داخل الادغال، يا جين. انت انسانة شابة وفضولية. وعلى ما اظن فقد اكتشفت الغربة، لذلك تريدين التعرف الى اشياء اخرى، اليس كذلك؟».

عندما دخلت جين مكتب الدوق، كانت الكهرباء تنير الغرفة، لكن سرعان ما شحت الاضواء وانطفأت بصورة نهائية. جاء أحد البدائيين حاملا شمعداناً كبيراً مرصعاً بالذهب. وقال الدوق لجين ان الكهرباء انقطعت، وهذا يحدث غالباً عندما تهب عاصفة.

كانت الفتاة الانكليزية مستمتعة بوميض الشموع المترجرج، الذي اضفى على الغرفة جوّا رومانطيقياً.

اجابت جين وهي تتكور في مقعدها الاحمر:

«نعم، يا سيدي، ارغب في رؤية الادغال».

ثم اضافت قائلة:

«لا يمكن لأنسان ان يعيش في جوار الادغال بدون ان يشعر بالسحر والانجذاب نحوها».

«هذا صحيح. اعدك بانني سآخذك لزيارة الادغال عندما يسمح لي الوقت، وسأريك الجوانب الرائعة منها. لكنني الآن، منهمك بزراعة البن وسأضطر للتغيّب عدة ايام».

كان يحتسي القهوة ويتكلم. القت جين نحوه نظرة سريعة ورأت بعض الغموض في وجهه المضاء بانوار الشموع الذهبية والمتأرجحة. وراحت تتساءل ما اذا كان الدوق سيبوح لها ببعض اسراره: كانت تتمنى ان يحصل هذا الاتصال، برغم تخوفها من ان يبوح لها بقصة حب مع امرأة سمراء من بلاده.

لا بدّ انه قرأ ما يجول في خاطرها: فقال بنبرة فاترة:

«في الادغال نباتات حيّة، وحيوانات صغيرة، انها تعطّر الجوّ بآلاف الروائح التي يتعذر وصفها. الجمال يحاذي الخطر: فتتشابك الازهار الناعمة كالحرير تخفي وراءها الثعبان السام السريع والمفترس... احياناً يصل الانسان امام مساحة من المياه الصافية الشفافة، فتجذبه في الطقس الحار، لكنها غالباً ما تكون قد تسربت اليها الاسماك الضارية، آكلة اللحوم، ذات الاسنان القاطعة القادرة على قطع يد او رجل في ثوان قليلة. والمشهد الاكثر جاذبية رقصة النار عند الهنود: انها رمز الحب والنار وهي العنصر الانثوي».

ابتسم الدوق في تمهل وراء سحب الدخان المتصاعد من سيكاره واضاف:

«حتى الآن لم اعرف بعد من هو الاكثر اثارة: رقصة النار وسط اشجار الموز ام الفلامنغو الاصلية في كهف مسوّرة بالدخان. هل سبق لك يا جين ان شاهدت الفلامنغو الاصلية؟».

«مرّة واحدة في احد الافلام. لكني لا اعتقد ان ذلك يشبه ما يحصل في الواقع.

اجاب الدوق وهو يبتسم بسخرية:

«بالطبع، انه شيء مختلف. ان الفلامينغو في اميركا اللاتينية مبارزة بين رجل وامرأة. وليست بالتالي ما تراه في الافلام السينمائية حيث الفلامينغو عبارة عن استعراض تقوم به ممثلة سينمائية تدوس على قدم الرجل الذي يراقصها، وبين اسنانها وردة حمراء. ان الفلامينغو مليء بالرموز. فيه روح وعاطفة وضمير واخلاص. المرأة هي البحر والرجل هو البرق. المرأة هي الارض والقدر والرجل القوة والموت».

كان الدوق مسترخياً على الاريكة الواسعة وعيناه تشبهان عيني الصقر وتحدقان بجين.

«انت ما زلت في ربيع العمر! امامك اشياء كثيرة للاكتشاف! الست متحمسة امام هذه الامكانية. يا فتاتي، بعدما تخلصت من ارتباطك بواجبك نحو عمتك».

«اني اعمل لديك، يا سيدي، امامي واجب عليّ القيام به. لست ضيفة هنا».

سألها الدوق بنبرة جافة:

«هل تحبين عملك؟ الست نادمة لأنك تركت عالمك المتمدن الى هذه البقعة الموحشة من العالم».

اجابت جين ببساطة:

«بالعكس، انا سعيدة لأنني هنا. قد اكون انسانة تعيش على الهامش، لكنني لم اكن قادرة على تغيير ما في نفسي. ارجوك يا سيدي ان تقول

لي ما اذا كنت معجباً بعملي ام لا. انا ارى هذا المكان ساحراً».

قال الدوق بصوت منخفض:

«لقد بني قصري بمتانة، وهو يتوهج كالذهب وسط حقول البن. انه قلعة محصنة ضد مخاطر الليل. والنساء اللواتي عشن في هذا المنزل على نوعين: اللواتي احببنه واللواتي كرهنه. ذهب ضحكهن وبكاؤهن، لكن القصر بقي. مرات عدة تساءلت هل من العدل ان يدوم الحجر اكثر من الجسم. ما رأيك انت يا آنستي؟»

فوجئت جين بالسؤال وترددت بعض الشيء قبل ان تقول:

«انا ارى ان الزهرة تؤثر فيّ اكثر من الاناء الذي يحملها، حتى ولو كان ذا قيمة كبيرة. وفي رأيي ان هذا ينطبق على الانسان كذلك».

«فعلاً. ومن الغريب مدى انعكاس الحياة في الادغال. هناك انواع مختلفة من النباتات: النباتات التي تأكل اللحوم، والنباتات التزيينية، والنباتات المختبئة... يجب التحفظ من تلك الاخيرة، لأنها اذا وضعت عرضة للشمس تنطوي على نفسها. انها اكثر سعادة وهي مخبأة، لأن جمالها داخلي، قلبها عميق وتخاف من اظهاره، لئلا يلحق به ايّ اذى. انها تفضل الظل... برغم انها لو كانت معرضة للشمس لأظهرت سحراً جذاباً غريباً».

نهض الدوق فجأة والسيكار في يده. فتح الستائر الحمراء وراح يتأمل المطر المتساقط على حجارة القرميد.

«يجب ان اتغيّب لعدة ايام، يا جين».

استدار نحوها بقامته الطويلة السمراء واضاف:

«سأترك تريستاو في عهدتك وانا متأكد انك ستسهرين على راحته.

هل تخافين البقاء هنا مع الخدم برفقة ابني؟»

«لا! انهم يضحكون كثيراً من اجل تريستاو، وقد اعتادوا على وجودي هنا. لا تخف يا سيدي، سأولي تريستاو كل عنايتي».

«اشكرك يا جين».

اخذ يتأمل الرماد في طرف سيكاره، ثم عاد الى مكتبه وفتح علبة صغيرة سوداء. كانت جين تنظر اليه وتتساءل الى اين هو ذاهب، ومع من سيمضي تلك الايام بعيداً عن الصقر الذهبي. كان نظرها يحدق بيديه الطويلتين المليئتين حيوية وقوة. هل ستلامس يداه امرأة أخرى؟

ابتعد الدوق عن مكتبه واتجه نحو النافذة من جديد. وسرعان ما اقترب من وراء جين. راح قلبها ينبض بسرعة هائلة. وضع يديه الدافئتين على كتفيها وقال:

«لا تنتفضي بهذه الحدة...»

بدا صوته كأنه مبحوح.

«لست اسداً يخرج من الغابة متوجهاً صوبك».

«انك تمشي كما يمشي الاسد».

وبرغم شدة انفعالها كانت تلفظ كلماتها بنبرة خفيفة. لم تكن تريده ان يذهب، لكنها لا تملك حق منعه. ليست سوى رفيقة ابنه. يد الدوق الموضوعة على كتفيها تجعلها مضطربة وخائفة في آن معاً. اخيراً تحرك الدوق وشعرت جين بشيء ثقيل وناعم يمتد الى عنقها. كانت في اصابع الدوق سلسلة احاطت على عنقها.

«انها حجر التنين ليبعد هذا الوحش عن بابك».

قام الدوق بدورة حول المقعد واصبح وجهاً لوجه امام جين. احتضن يديها بيديه وساعدها على الوقوف لتصبح امام الضوء. وكانت عينا الدوق الذهبيتان تحدقان بالحلية التي كانت تتوهج على بشرتها.

«انها في لون عينيك. هل تزعجك هديتي يا آنستي الخجولة؟»

سألته جين وهي تنظر اليه مترددة:

«ولكن ما هي هذه الحجارة؟ هل هي حجارة كريمة، يا سيدي؟»

اجابها الدوق وهو يهز كتفيه:

«تقريباً، انها حجارة صغيرة جميلة. انا لا اريد ان ازيّنك بالحلي الرائعة التي تثير غرائزي. اشعر انني بمثابة أب لك. لاحظت انك لا تملكين شيئاً من هذه التفاهات التي تحبها النساء عادة. الم تحبي هذه الجوهرة يا جين؟ اعتقد انها تليق بك».

كانت تقاوم لتتخلص من قبضة يده ولتنتزع السلسة. وفهم الدوق ماذا تضمر فراح يشد اكثر على قبضته. وهمست جين:

«انها زمردة حقيقية. لا استطيع... لا...».

«بل ستقبلينها. اريدك ان تعرفي شيئاً: ان رجلاً في مقامي، من النادر ان تتاح له الفرصة للاعراب عن اقراره بالفضل. يمكنه في كل الاحوال ان يدفع ثمن الخدمات التي تسدى اليه. انا اشكرك لأنك وضعت نفسك في تصرف ابني. ليس فقط كأستاذة أو رفيقة، بل أيضاً كصديقة يا آنسة داير. نحن نعيش اليوم عصراً مضطرباً، وعلى الولد ان يشعر بصورة دائمة بوجود انسان هادىء، شجاع ومحب. انت تتمتعين بهذه الصفات التي كنت ابحث عنها لرفيقة تريستاو. لذلك

لم تُعدتهم قيمة الجوهرة المعلقة في عنقك. انها نوع من الزينة. لكن اذا احتجت يوماً الى بعض المال، فيمكنك بيعها».

توقف عن شد يديها واعادهما الى صدرها.

«حافظي على هذه الجوهرة، يا جين. انها نوع من التعويض في حال انتهت اقامتك في البرازيل بصورة مفاجئة».

«لقد تعلقت بابنك وأمل فقط لو ان عملي هنا يستمرّ بعض الوقت. لكن اذا تزوجت فلن تعود في حاجة اليّ».

«هل تعتقدين انني افكر بالزواج... مرّة اخرى؟ من تكون تلك الزوجة، يا جين؟ الا تزالين تعتقدين بأنني ملتهب حباً بأبنة عمتك الجذابة؟»

«لا... لا أعرف اذا كانت المرأة الجذابة تؤثر في الرجل بصورة دائمة».

اجابت جين وهي تعرف تماماً ان لارين ليست هي التي تجذب الدوق بيدرو خارج الصقر الذهبي

عندما قال لها بيدرو انه مضطر الى التغيّب عن المنزل بضعة أيام، كانت تلمع في عينيه شعلة، كأنه لم يعد قادراً على مقاومة ما يجذبه الى الخارج.

«اعدك وعداً صريحاً، يا جين. عندما اقرر الزواج، فلن اتأخر في ان ابوح لك بذلك. وكما قلت، لن اعود في حاجة الى مربية. كما ترين يا جين، انا صادق معك. انت تفضلين الصراحة وانا اعرف ذلك».

اجابت بصوت هادئ:

«بالتأكيد، يا سيدي. لكن ما كان ينبغي ان تقدم اليّ هذه الزمردة. قبلتها لأنني اعرف جيداً انك انسان عنيد. اتسمح لي بالنظر الى المرآة؟»

«بالطبع، يا جين».

وحررها بهدوء وقال:

«عندما يلتقي انسانان عنيدان، فلا بدّ من حدوث معارك».

«والاقوى هو الذي ينتصر دائماً».

توجهت جين نحو الباب وفتحته. في البهو مرآة كبيرة. ولما انعكست صورتها على المرآة، شعرت بسحر يغلفها. كانت الجوهرة المعلقة بسلسلة ذهبية نحيفة تلمع في عنقها.

وتساءلت جين: «هل هذه انا بالفعل؟»

لم تعد جين داير الحقيقية، صارت انسانة ترتدي ثياب امرأة اخرى وعلى عنقها زمردة مستعارة.

ولبرهة لم تر جين سوى صورتها في المرآة، ثم ظهر شبح الدوق. كان يسيطر عليها برأسه وكتفيه.

قال الدوق متعجباً وهو يحدق في عيني جين في المرآة:

«انت انسانة شجاعة ويمكنني الاتكال عليك في الاوقات العصيبة، أكثر من اي شخص آخر... جسمك فقط هو سريع العطب. أليس كذلك؟»

«اظن ذلك، يا سيدي. ارجو ان تطمئن على تريستاو في غيابك».

«اذاً، يا جين؛ هل تحبين الجوهرة؟»

«جداً، يا سيدي، هذا لطف منك ان تدعني التحلّ بها».

«انا لست انساناً لطيفاً. افهمي ذلك بصورة نهائية. لم اطلب منك المجيء الى «الصقر الذهبي» لأنني احب الاحسان. وكذلك لم اقدم اليك الزمردة لأنني شعرت بأية عاطفة».

احاط كتفيها واجبرها على الاستدارة والنظر اليه. اجتازتها نظرته

كالشعلة.

«ارجوك الا تلعبي بالنار والا غضبت. عندما تهدى امرأة حلية تصبح ملكها. ان ما ترينه في المرأة يعجبك، اليس كذلك؟ هل عليّ ان اعرك كي تقولي الحقيقة؟»

«انا اعرف ما فعلت يا سيدي. اعطيتني ثياباً، وبما اني لا املك مجوهرات ارتديها مع هذه الملابس، اهديتني واحدة. سأرتدي هذه الحلية هنا، ما دمت تريد ذلك. وعندما تنتهي مهمتي واغادر القصر، اعيدها اليك».

كانت جين تتحلى بالشجاعة، لكنها في الحقيقة كانت مرهقة. بيدرو سبق ان قال ان وجودها في الصقر الذهبي سينتهي يوماً ما وان تريستاو لن يعود في حاجة الى مربية.

كانت الفتاة تنظر الى مستقبلها من خلال غيمة رمادية، خالية من ايّ سحر. لذلك عليها ان تكون وقحة وتقول للدوق ما يجول في رأسها.

رفع الدوق وجه جين موجهاً اياه نحو ضوء الشموع المترجرج وسألها:

«ما الامر؟ هل ترين امامك مستقبلا خالياً من الحب؟»

«لم اعد ابالي. لقد قبلت ما لا مفرّ منه، ومن الافضل الاستسلام والاستغناء عن بعض الاشياء».

«وما الذي ينقصك بالضبط؟»

وضع الدوق يده على خصر جين وقربها منه:

«الاغراء شيء غريب، يا فتاتي. وهو احياناً يسيطر على الانسان من دون

ان يشعره».

«لكن، انا... انا لست امرأة جذابة، يا سيّدي».

كان تنفسها متقطعاً، وبدأت تتساءل في ذعر الى اين ستصل بالحديث معه.

«من الذي زرع في رأسك هذه الفكرة الخاطئة؟»

اقترب وجهه من وجهها، وبدأت تهاب الموقف.

«ليست فكرة خاطئة... سمعت احدهم يقول اني لا اجذب الرجال. اتلعثم، وابدو تافهة ومثيرة للسخرية. وانت تجد متعة في تعذيبي. هذا يؤلمني، يا سيدي. لا تنظر اليّ هكذا! لن ادعك تسحرني! انت تعرف جيداً مدى تسلطك على الناس...»

«لكن الظاهر انك لا تعرفين ما هي القدرة التي تتمتعين بها، يا فتاتي. من كان ذلك الرجل؟ وماذا قال بالضبط؟»

«حدث ذلك اثناء حفلة اقامتها عمتي في منزلها».

«ومن كان هناك، الم يكونوا كلهم من اهل المسرح؟»

«نعم، ان اصدقاء عمتي معظمهم من اوساطها».

«هل انت متأكدة ان الذي ابدى هذه الملاحظة رجل؟»

«بكل تأكيد».

«هل تفهمين يا جين؟ هناك الرجال الحقيقيون وهناك الآخرون... ماذا قال لك هذا الرجل؟»

«آه! لم تدرك ماذا قال! اراد ان يقول ان لا شيء في مظهري يجذب الرجال، وانني اشبه الجنيات، شيء من هذا».

«هكذا اذن... احدهم رأى فيك شيئاً غريباً ولم يعرف ما يسميه. هل

تعتقدين، يا جين، اني سأتصرف معك هكذا. هل اجرأ واقول لك انك ساحرة صغيرة شاحبة اللون ذات عينين خضراوين غامضتين؟ وانك انسانة يتعذر على الآخر ادراكها؟ الا تعرفين، يا جين، ان زهرة الحب الحقيقية هي وردة شاحبة؟»

ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة.

«لم يكن هناك مفرّ من ان يجرحك الآخرون، يا ساحرتي الصغيرة».

«شكراً، لأنك قلت لي ذلك».

كان عليها ان تتسلح بالوقاحة، انها طريقتها الوحيدة للدفاع عن نفسها.

لمست اصابع بيدرو الزمردة، وشعرت جين بيده، وكادت تصرخ.

«انني احذرك يا جين، اذا حاولت ان تعيدي لي هذه الحلية، سيكلفك ذلك غالياً».

«هل هذا تهديد يا سيدي؟»

«نعم، يا فتاتي، مع النساء يجب التصرف احياناً بلباقة واحياناً اخرى بقسوة. اني اصرّ على ان تحتفظي بالمجوهرة».

شدّ ذراعه حولها ورمقها بنظرة لم يكن فيها شيء من القسوة.

«هذه الزمردة لا علاقة لها بالمجوهرات التي تقدم لزوجة احد رجال آل زانتو. انها حجارة قديمة، عمرها عمر هذا القصر. انها احدى الحجارة الاولى التي استخدمها من ارض برازيلية سلفي الدوق بيدرو. كانت مخصصة لحبيبته التي لم يحالفه الحظ كي يتزوجها».

«وتريد ان تقدمها اليّ؟»

«يجب ان تملك هذه الزمردة انسانة مثلك، لأن الانسان الذي استخرجها من الارض ونحتها، يشبهك: انسان كريم، ذو قلب طيب، ومستعد للتضحية. حافظي على هذه الحلية: انها لك».

كان الدوق يتكلم بنبرة قاطعة. وبينما كان يرتب الحجارة على عنقها، احنى رأسه فجأة، وعانقها. شعرت جين بقشعريرة وحاولت ان تكبت دموعها. الدوق يجب الا يعرف انها تحبه. حاولت عدم التحرك بين ذراعيه... لكنها سرعان ما تخلصت منه وفرّت هاربة نحو السلّم والدموع تتساقط بغزارة من عينيها. كأنها في حلم، تركض من دون ان تنهار قواها. تهرب من الانسان الوحيد في العالم الذي تحب البقاء قربه.

لو انها تستطيع التوقف عن التفكير بتلك المرأة التي هجرها والتي اعطته ثمرة حبها: تريستاو.

وصلت الى غرفتها وارتمت على السرير ويدها تشد على الزمردة التي قدمها دوق آخر الى احدى الراهبات... هذه الحجارة تشكل تعويذة ترمز الى الفأل.

اندست جين في السرير وهي تشعر بأن شيئاً ما من الدوق لا يزال معها.

١٠ـ آه يا بحر!

غادر الدوق القصر الذهبي من دون ان يودع جين. واخبرها تريستاو ان والده جاء الى غرفته في الصباح الباكر. ولما رآه مستيقظاً، قال انه ذاهب لقضاء بعض الاعمال وسيضطر الى التغيب اسبوع على الاقل.

«طلب مني والدي ان اكون مهذبا والا ازعجك، يا آنسة.»

«انت لم تزعجني ابداً، يا صديقي!»

ابتسمت جين، لكنها شعرت في قلبها. لقد اصبحت تقريباً انسانة غريبة، نسيها بيدرو في لحظة الوداع. ان حادثة تلك الليلة ما كانت حصلت لولا وجود الزمردة، التي تعلقها في عنقها، ليل نهار، مخافة ان تضيع.

لم يسبق لأحد ان قدم لجين هدية كهذه. وترددت مراراً قبل ان تقبل الجوهرة. لكن سرعان ما شعرت ان تلك المجوهرة تخصها وها هي تحافظ عليها.

خلال الايام القليلة التي سبقت سفر الدوق، لم يحدثها عن الهدية بل كان يكتفي بأن يلقي نظرة على عنقها، من وقت الى آخر ليتأكد من وجودها حيث وضعها.

منذ غياب الدوق، كان القصر الذهبي يبدو فارغا في عيني جين! وكانت دائما تتوقع ان تراه عائدا من حمامه الصباحي او من الاسطبل بعدما يكون قد امتطى حصانه وتفقد حقول البن. الدوق يملك ايضا حقولا من القطن وغابة واسعة حيث يتم تكرير افضل العطور.

كانت جين تنظر حولها وهي جالسة قرب تريستاو في شرفة مبلطة بالفسيفساء. وكان الصبي الاسمر النحيل يطعم عصفوراً نقاراً في رأسه ريش احمر.

ابتسمت جين عندما التفت الصبي نحوها. كانت عيناه الذهبيتان تلمعان. ومرّة اخرى لفتها الشبه الكبير بين الصبيّ وعمته الشابة.

كان الولد يحدث جين في معظم الاوقات عن عمته. وكان يقول انها امرأة جميلة كما تبدو وهي تضع على رأسها قبعة كبيرة بيضاء.

قال تريستاو لجين:

«احب ان اذهب الى شاطىء البحر، اليوم. الطقس حار، يا آنستي، وهناك سنشعر ببعض الطراوة.»

رحبت جين بهذه الفكرة وهي لا تصدق متى تتسنى لها فرصة الغطس في هذا البحر الازرق.

«سأطلب من جوستوس ان يحملك. لا يمكنني ان اسمح لك بالمشي كل هذه المسافة، يا صديقي. اذا سقطت واصبت بشيء، فان والدك سيغضب مني.»

«هل تخافين من والدي يا آنسة؟»

استغرب الصبي كلام جين داير اذ لم يخطر في باله ان والده قادر

على التصرف بغضب. حتى الآن لم ير فيه سوى العطف والحنان. اضاف قائلاً:

«شاهدته مرات عديدة يبتسم لك، يا جين. اعتقد انه يحبك»

اجابته جين بحدة:

«انه يحترمني. لكنه يحبك انت كثيراً يا عزيزي. وانا لا اريد ان اجازف بأي شيء يمكن ان يحصل لك. عليك ان تقبل ان يساعدك جوستوس. انه انسان قوي وخطواته أكيدة. كنت اتمنى لو انه قادر على حملي.. انا ايضاً»

ضحك تريستاو فرحا، وعانق جين. ثم ذهبا لأحضار ملابس السباحة واعلام جوستوس بأنهما في حاجة اليه.

فجأة شعرت جين باحساس غريب كأنه هناك شيئا في الأفق من الصعب معرفته. جذبت تريستاو اليها عندما وصلا الى البهو وقالت:

«هل من الضروري ان تسبح في البحر، في غياب والدك يمكننا ان نسبح في الحوض»

احتج تريستاو وفي عينيه نظرات عتاب ولوم:

«لقد وعدتني بذلك. لم اعد طفلاً واريد ان انمو وأكبر حتى اصبح شجاعا مثل والدي. يقول بريميتيفو ان والدي من اعظم رجال البرازيل. وانا اريد التشبه به. احب ان اسبح في البحر واترك الامواج تغرقني وتؤرجحني. وهذا مستحيل في البركة. ان الشيء الوحيد الذي اكرهه هو ان يحملني احد! وعندما تصبح ساقي اقوى وامتن، لن ادع احداً يحملني»

اجابته جين مبتسمة:

«هذا عظيم»

اصرار الصبي على التشبه بوالده اثّر في جين تأثيراً عميقاً. من يتجرأ ويعاتبه على ذلك؟ جين نفسها تشعر بسحر وانجذاب الى شخصية الدوق. قالت له:

«اذهب وقل لجوستوس ان يحضر. وانا سأخذ ملابس السباحة والمناشف وسأطلب من الطاهي ان يحضرّ لنا بعض الطعام لنأخذه معنا»

«انت رفيقتي الحبيبة، وانا احبك»

وضع تريستاو ذراعيه حول عنق جين وعانقها بشدة.

«انا احب تناول المأكولات الباردة عندما اكون على الشاطىء، واستعمال الايدي للأكل. لسنا بحاجة ان نأخذ معنا . ما رأيك لو اكتفينا بأكل بعض البيض المسلوق، والدجاج والزيتون والجبنة»

اجابت جين وهي تضحك وتشده بقوة نحوها:

«نعم، نعم، سنحاول ان نختلس من المطبخ كل ما هو طيب ولذيذ»

ابتعد تريستاو وهو يعرج وذهب يفتش عن الخادم الضخم وشعرت بغصة وهي تراه يبتعد. يجب ان تعتني به كل العناية.

بعد نصف ساعة كانا في طريقهما نحو الشاطىء. كان تريستاو جالسا على كتفي جوستوس وكانت جين تحمل سلة الطعام وثياب السباحة وبعض المشروبات المنعشة المثلجة

كانت الريح تعصف آتية من البحر وراحت تلاعب شعرها وملابسها الحمراء، وهي ترتعش فرحاً. انه نهار رائع وكل شيء يبدو في

منتهى السعادة! لكن عندما تسمع ضحكات تريستاو، كانت تدرك ما الذي يعكر سعادتها: فالدوق بعيد ولا يقاسمها الفرح. وهي تعرف ان غيابه عن الصقر الذهبي ليس بسبب العمل.

توقفت جين في الطريق المؤدي الى خليج تحيط به الصخور وراحت تتأمل ذروة الامواج الفضية فقلبها يتموج بايقاع شبيه بذلك. وفوق المحيط تحلق طيور البحر، باسطة اجنحتها الواسعة، في سماء زرقاء.

هذا الجمال الرائع سيطر على قلب جين ومخيلتها. اغمضت عينيها لتحفظ في اعماقها ذكرى هذه اللحظة.

كانت تسمع اصوات البحر والعصافير وصوت تريستاو:

«تقدمي يا آنسة! لقد ابتعدت عنا كثيراً»

صرخت جين بصوت مرح:

«لأنني آتية. احاول ان اتفرج على كل ما هو حولي. فالمناخ جميل للغاية»

قال تريستاو مازحاً وساخراً:

«النساء يحلمن بصورة دائمة. اسرع يا جوستوس!»

صرخت جين:

«كلا! كن حذراً يا جوستوس مع الصبي ولا تسرع»

ركضت جين بهما وتعثرت على السلالم القديمة وكادت ان تقع على رأسها. ومن هذا الجانب للشاطىء الصخري يذوب العالم مع المحيط وشعرت جين بالخوف لانها سمحت لتريستاو بالمجيء الى هنا. في اي حال، هو و جوستوس وصلا بأمان الى الشاطىء الذي

يبدو مثل هلال من الرمال تحيط به الصخور الحمراء والمياه الزرقاء الصافية تغطي من حين الى آخر الرمال العاجية. انه شاطىء منعزل وعر ورائحة الهواء مشبعة بالرطوبة.

عندما وصلت جين الى الرمال، رأت تريستاو منهمكا في خلع حذائه. ارادت ان تطلب منه ان يأمر جوستوس بالبقاء. لكن سرعان ما مرّ الهندي الشاب امامها مبتسماً لها بخجل واسرع راكضا يتسلق السلالم التي تصل به الى القصر الذهبي.

قالت جين لتريستاو وهي تراقب الامواج المتدفقة:

«لماذا لم يبق معنا؟»

لا يسعها منع تريستاو من الذهاب الى الماء، لكن عليها ان تطلب منه ان يلعب فقط ولا يذهب بعيداً داخل البحر.

اجابها تريستاو وهو يخلع قميصه:

«لا يحب جوستوس البحر. انه يفضل الادغال. انه هندي بالوراثة، انا برتغالي. والبرتغاليون يحبون الساحة. قال لي والدي ان القباطنة البرتغاليين اكتشفوا جزءاً كبيراً من العالم لانهم يتحلون بالجرأة وحب المغامرة.»

«والدك يحب البرتغال كثيراً اليس كذلك يا صديقي؟»

«نعم ، يا آنستي. ان جدتي برتغالية. ولوالدي منزل في استوريل. لكنني افضل ان اعيش هنا في الصقر الذهبي. اريد ان اعيش هنا كل حياتي. وعندما اصبح شاباً ، سأمتطي الخيل وازور الحقول مثل والدي. واصطاد الاسود في الادغال واحضر اجتماعات الهنود. ان هذا شرف كبير..ما رأيك بوالدي يا آنستي، اليس رجلا عظيما؟»

اجابت جين وهي تسرّح شعر الصبي:

«انه اعظم رجل التقيته. والآن، يجب ان تعدني الا تغطس في الماء قبلي. عليك ان تنتظرني حتى اغيرّ ملابسي. اذا لم تطعني يا تريستاو سأغضب منك...في غياب والدك انا المسؤولة عنك. وقد وعدت والدك بان اسهر على راحتك حتى لا يحدث لك اي مكروه. انت تعرف جيداً انك تعني له كل شيء.»

اجاب تريستاو بغمزة ساخرة وهو يلامس وجه جين:

«هناك عمتي في الدير، انها شقيقته ، كما تعرفين»

«اعرف. والآن ابق هنا والعب بالرمل ريثما اغيرّ ملابسي وراء هذه الصخور الكبيرة، التي تشبه فارساً احمر مقطوع الرأس»

« ومن قطع رأسها؟»

«والدك ، بالتأكيد...وسوف يقطع رأسي اذا حدث لك اي مكروه، لا تريده ان يقطع رأسي، اليس كذلك؟»

«لا، لأن رأسك ناعم كجناح عصفور اسود وعيناك تبتسمان بصورة دائمة، وكذلك لأني احب صوتك الغريب»

واضاف قائلاً بجدية:

«هل تصبحين مسنة عندما اكبر؟ كنت افكر بأن اتزوجك، يا جين!»

«هذا لطف منك، يا تريستاو لكن سأكون كبيرة السن وانت ستكون في حاجة الى امرأة شابة وجميلة»

«كم عمرك؟»

«عمري اثنان وعشرون عاماً. يمكنك ان تحسب الفرق الكبير بيننا.»

ستة عشرة عاما.. لكن ذلك لا يبدو بنظره هوة واسعة.

«لم ار بحياتي اجمل من تلك العينين الخضراوين، يا جين. اعتقد اني سأبدو اكبر بكثير من عمري الحقيقي ، لأن مسؤولياتي، ستكون كثيرة. سأكون مثل والدي،وسيمتلىء وجهي بتلك الخطوط الصغيرة التي تتجوف كلما ابتسم. اتعتقدين، يا آنستي، انني سأشبه ابي في المستقبل؟»

قالت جين وهي تنظر الى وجه الصبي وتراقب ملامحه الناعمة:

«دعني ارى ، نعم، اني ارى فيك ملامح العائلة، يا تريستاو انت ايضا تملك عينين جميلتين مثل عمتك ماغدالينا، او الاخت ماريا. لكن ، هنا، في طرف ذقنك، غمازات. ستشبه والدك عندما تكبر»

« لماذا يرتجف صوتك...اذا كنت خائفة من ابي. فسأعدك الا اذهب للسباحة الآ بعد ان تغيري ملابسك. لكن ارجوك ان تسرعي!»

«سأكون حاضرة بأسرع من لمح البصر»

ركضت جين وراء الصخرة وخلعت ثيابها بسرعة وارتدت مايو بني اللون. ثم هرعت تلحق بتريستاو وهي سعيدة بين مياه البحر وامواجه.

لو كانت وحدها لراحت تسبح في اعماق البحر ولبقيت وقتا اطول في الماء،لأن الحمام كان منعشاً وباعثا للنشاط لكن جين اقترحت على تريستاو ان يرتاح قبل ان يتعب، وان يبحث عن الاصداف لأنها تريد ان تلصقها على علبة السيكار الفارغة لتحفظها كذكرى لها.

نظرت الى تريستاو وقرأت في عينيه تساؤلاً. فسارعت تقول:

«كلا. ليس الآن، يا عزيزي. لكن يجب ان تعرف شيئا عندما يطلب مني والدك الرحيل، عليّ ان اذهب. فالحياة ليست دائما كما نريدها ان

تكون. لذلك يجب الافادة من الرمال الحارة، من الاصداف، من عصير الاناناس...ما رأيك ان تشرب منه الآن؟ انني شديدة الظمأ.»

همس تريستاو يقول:

«لا...لا اريدك ان ترحلي...ابداً. عندما يعود والدي سأطلب منه ان يبقيك. ما رأيك لو تزوجك...»

«تريستاو!»

شعرت جين بصدمة في كلمات الولد. فهي تطابق حلمها الخالي من الأمل. وقالت:

«والدك دوق. والرجال مثله لا يتزوجون الفتيات مثلي، يا صديقي. اني اعمل لأعيش. وانا لست بانسانة حسنة المنظر. ارجو الأ تقول لوالدك ما سبق وقلته لي الآن! اذا فعلت سأضطر الى الفرار.»

سألها الصبي بعناد:

«لماذا؟ انت فتاة شابة، والرجال يتزوجون الفتيات مثلك. وانت ايضا جميلة. ان عينيك خضراوين مثل الجوهرة المعلقة في عنقك. وقدماك جميلتان ايضاً.»

«انت ولد ناضج قبل الاوان!»

وابتسمت جين وهي تأخذ الصبي الى ظل شجرة النخيل حيث كانت سلة الطعام.

«اني اقدر اعجابك بقدميّ، يا عزيزي. لكن الكبار لا يتزوجون امرأة لأن اصابع قدميها مستقيمة. انهم ينظرون اولاً في الوجه. ولا يحب وجهي الاّ الصبيان والكلاب...»

وراح تريستاو يقهقه.

«آه، يا جين! كم انت ظريفة!»

«هذا ما قلته. اني اشبه الجنيّة وسأختفي مثل غيمة سحاب اذا قلت لوالدك كلمة واحدة عن هذا الموضوع...سأكون دوقة جميلة! هل يمكنك ان ترسم لي تاجاً؟»

تناولت جين قبعتها المصنوعة من القش ووضعتها على رأسها ثم قالت ساخرة:

«صاحبةالسعادة، الدوقة جين، المشهورة باستقامة اصابع قدميها وبشعرها اليابس.»

وراحت ترقص رقصة انكليزية حول شجرة النخيل. لم تفكر انها تملك موهبة التمثيل مثل عمتها مادج، لكنها في تلك اللحظة اكتشفت مدى موهبتها وفرحت لذلك. يمكنها دائماًان تفرح تريستاو وان تخبيء حقيقة شخصيتها امام الدوق. هكذا لن يعرف احد اي عذاب واي خوف من الوحدة، ما دامت لن تبوح لأحد بشيء.

سألت تريستاو وبعدما انتهى من تناول الاناناس:

«مارأيك لو نأكل الآن؟»

وافق تريستاو بحماس. وطفقا يلتهمان من محتوى سلة الطعام التي كان فيها جوانح دجاج باردة، وبيض مسلوق وزيتون اسود، وروستو البقر البارد. كان تريستاو يأكل بشهية وهو ممدد على بطنه.

سأل تريستاو جين وهو يعض على بيضة وابتسامة مرحة في عينيه:

«هل كنت تقومين برحلات في الهواء الطلق عندما كنت في انكلترا. اعتقد انها الطريقة الفضلى لتناول الأكل.»

«نعم. لكن لم يسبق لي ان قمت بنزهة مرحة كهذه من قبل»

هزّ تريستاو رأسه وقال:

«كنت افضل لو ان ابي معنا الآن. لكان فرح جداً. فهو يحب الزيتون والبيض. اتساءل، يا ترى ماذا يفعل الآن؟ هل تعتقدين انه منهمك جداً بأعماله لدرجة انه نسي وجودنا؟»

«انا متأكدة انه لا ينساك ابداً، يا صديقي. ما الذّ هذا الطعام.»

كانت جين تبتسم وهي تتكلم. كانت هي ايضا تفضل لو كان الدوق بجانبها...وراحت تتخيله وهو خارج من الماء.

اغمضت جين عينيها، تذكرت يده على ذراعيها وشعرت بالرعشة ذاتها. آه، لو يعرف اهمية هذه اللمسات الحارة. انها اهمّ بكثير من الجواهر. لو عرف ذلك، لهزىء منها وعرف مدى تفاهتها...

قال تريستاو:

«كنت اتمنى لو عندي شقيقات او اشقاء العب معهم، فلن اكون عندئذ وحيداً. هل انت وحيدة يا جين؟»

اجابت وهي تقدم له تينة كبيرة:

«لن أكون وحيدة معك، يا عزيزي. انك تأكل جيداً وسوف تكبر قبل ان يعود والدك»

«اتمنى ان يأتي والدي بأسرع وقت ممكن.»

بعد الغداء، راح الصبي يمرّغ جسمه في رمال الشاطىء، ثم نام. كانت جين مضطربة. راحت تتمشى قرب مياه البحر، والرياح تلاعب شعرها.

نعم، هي ايضا تريد ان يعود الدوق بأسرع ما يمكن...لكن عودته

قد تؤدي الى تغيير الجو في القصر الذهبي. رفعت نظرها نحو السماء، فرأت نسراً اسود يحلّق بسرعة البرق، غيمة واحدة، في تلك السماء الزرقاء الصافية، جعلتها ترتعش. حدقت جين بالغيمة وبدت لها غريبة ومخدرة. وكأنها تريد التهرب من افكارها، ركضت الى البحر وراحت تسبح بحرية في المياه الزرقاء. ارادت ان تسبح، حتى يتوقف قلبها عن الخفقان...وهكذا لن تشعر بعذاب الفراق، فراق انسان اعطاها لذة الحياة. لكن ابنه ينام على الرمال ويجب ان تظلّ على قيد الحياة، قريبة منه عندما يفتح عينيه ويبحث عنها...

عندما افاق تريستاو كانت جين مستلقية تأخذ حمام شمس. ولما رآها فرح وقال:

«اعتقدت انك ذهبت»

«هل كنت تحلم. اني دائماً في قربك»

هزّ رأسه، لكن سرعان ما تعلّقت اصابعه بها في شوق مضطرب. عندما رأت جوستوس ينزل السلالم والكلب الضخم ارنو يقفز قربه. نظرت جين نحو السماء، لم تعد الغيمة وحيدة. فالطقس يهدد بالمطر. وجين تعرف انه عندما تمطر في هذه البقعة من الأرض، فكأنه الطوفان. زخات المطر تضرب الحدائق وتحني اشجار النخيل حتى تلتصق بالارض. المطر في البلدان الاستوائية قوي مثل الشمس، وكثيف كالحقول.

عادا الى الصقر الذهبي. وكل شيء يبدو باهتا في غياب الدوق. اصبحت الغيوم حمراء وذهبية في الغسق. لكن العاصفة لم تنفجر. بعد العشاء المكوّن من الباذنجان والبطاطا والسمك المقلي، راحت

جين و تريستاو يلعبان لعبة الدومينو.

في الساعة الثامنة، رأت جين ان الولد متعب بعد يوم طويل قضاه في الهواء الطلق. فأقنعته بتغيير ملابسه واللجوء الى الفراش. وراحت تهزه الى ان وضع ذراعيه حول عنقها وشدها نحوه قائلاً.

«لا تذهبي»

«لا، يا عزيزي. سأبقى جالسة في قربك حتى تنام»

«اريد ان اقول...لا ترحلي ابداً»

«ابداً. هذا بعيد جداً. اما الآن فما زلت هنا. انا رفيقتك وصديقتك، وبالنسبة الى والدك، اني موظفة واقل اهمية من بريميتيفو»

همس تريستاو وهو يجذبها نحوه:

«ألا تحبينني؟»

انغرزت الزمردة في جلد جين واحست بألم ممزوج بالفرح لدى شعورها بأن ابن بيدرو يحبها...اما الدوق، فلا بد ان يكون الآن مع امرأة اخرى. واخترقت العذابات قلب جين كالسكين.

اجابت جين وهي تقبل جبين تريستاو، وخده وعنقه:

«انا احبك بكل تأكيد. والآن عليك ان تنام جيداً، يا عزيزي. ارجو لك احلاماً جميلة»

سألها الولد وهو يغمض عينيه:

«ماذا ستفعلين الليلة بعدما انام؟»

«سأفرز ما جمعناه من اصداف جميلة، وغداً نبحث عن علبة سيكار فارغة ونزينها»

«ابحثي عنها هذا المساء، هكذا يمكننا ان نبدأ بتزيينها غداً»

ابتسم تريستاو ثم اندس في السرير. شاهدته جين ينام. انه ولد حساس وكثير الجدية بالنسبة الى عمره. لقد تعلق بها لأنها تكرس له وقتاً طويلاً. وعلى هذا الاساس قرر الدوق ان يأتي بزوجة الى الصقر الذهبي بدلاً من رفيقة.

نهضت جين بدون احداث اية ضجة، بعدما سحبت يدها من ذراع الصبي. واحتلها الغضب والتمرّد: لن يتأخر الدوق عن طردها وتفتيت قلبها في الوقت المناسب. الم يقل لها« اني اعدك يا جين، انه عندما اقرر الزواج، سأحدثك بذلك.»

كانت يداها ترتجفان وهي تهم بفتح الباب لمغادرة غرفة تريستاو. في الممر اخذت جين نفساً عميقاً لتهدىء اعصابها. وراحت تفكر يائسة وتتساءل:«هل يجب ان اكون انسانة تافهة؟ هل كان يجب ان اقع في غرام رجل جذاب؟»

كانت يداها تشدان على درابزين الدرج المبني من الحديد المصقول ونزلت الى البهو الساكن والبارد. توقفت امام المرآة، التي عكست صورتها برفقة الدوق، في تلك الليلة الحاسمة. اما اليوم فهي وحدها مع الذكريات.

كلا، لا تريد جين التطلع الى وجهها. ذلك الوجه العاجز عن تحريك رجل مثل بيدرو. ابتعدت عن المرآة، وراحت نحو المكتب ودخلته مثل شبح: كانت الغرفة لا تزال تحتفظ برائحة السيكار. اضاءت الانوار. ورغم الالوان وجمال اللوحات، شعرت بأن الغرفة خالية من الحياة. كان المكتب مرتباً. كل شيء كان مختفياً في غياب صوت بيدرو الدافىء والعميق.

جلست جين في الأريكة الواسعة ورفعت غطاء علبة قديمة تبث الموسيقى مصنوعة من خشب الورد. وسمعت اغنية برتغالية قديمة.

كانت جين تعرف انها تعذب نفسها عن عمد. لقد جاءت لترى تلك الاشياء القديمة والتحف الفنية التي جمعها الدوق.

اقفلت جين علبة الموسيقى ثم نهضت والدموع تنهمر من عينيها وهرولت خارجة من المكتب، ولكن من دون ان يلحق بها هذه المرة احد.

١١ـ في مكان ما...

مضى اكثر من اسبوع على غياب الدوق بدون أن يتضح سبب تأخيره. وتمكنت جين من اقناع تريستاو بأن والده منهمك بأعمال كثيرة، لكنها كانت متأكدة بأن سبباً شخصياً ابقى بيدرو بعيداً عن «الصقر الذهبي».

ومع مرور الايام كان ينمو في داخل جين قلق رهيب. كانت خائفة من ان يعود الدوق مع زوجة، فلا يعود لها مكان في هذا القصر.

صباح الجمعة، كانت الشمس تنير بأشعتها الصفراء الملتهبة ساحة المنزل، والعصافير الصغيرة الملونة لم تأبه بفتات الخبز التي كانت ترميها لها جين، بل تختبىء هربا من اشعة الشمس الحارقة. والفراشات الخضراء والليلكية تطير وتصفق بأجنحتها الشفافة.

كان تريستاو يمرح، مرتديا البنطلون القصير الاخضر والقبعة المصنوعة من القش. وجين بفستان خفيف تبحث عن الظل. قبل موعد الغداء، عاد الى المنزل، حيث تضفي مجاري الهواء برودة منعشة، وكانت اشجار السرو تتحرك ببطء، كأنها لولبة من حديد. وبدت النباتات المتسلقة الخضراء معدنية شديدة التألق.

استندت جين ظهرها الى عامود وشعرت بخفقات قلبها الحزين.

لكن تريستاو لم يتذمر من النوم في وقت القيلولة. وضعت جين الصبي في السرير عارياً، ثم راحت الى غرفتها واستراحت في الكرسي الطويل.

اليوم بالذات كانت جين تشعر بالكسل مثل ابنة عمتها لاربن. كانت في حاجة الى ساعة او ساعتين لتكون وحيدة في مكان منعش يتلاءم مع مزاجها القلق.

خرجت الى شرفة غرفتها وراحت تتأمل الحقول المزروعة الواسعة الممتدة الى ما بعد الحدائق التي تحيط بالقصر.

احست جين كأن صوتاً يهمس في اذنيها: «هل تخافين؟ لا تكوني حمقاء يا جين: ان الدوق على بعد اميال عديدة ويستفيد من حريته!»

دخلت الفتاة الى غرفتها وتناولت قبعة من القش وخرجت.

كان الصمت يعمّ القصر. لا بدّ ان الخدم الهنود يأخذون قسطهم من الراحة.

في البساتين، كانت اقراط الموز الثقيلة جامدة لا تتحرك. رائحة الكاكاو القوية تعطر الجو. والدراق الصغير يلمع كالشمس.

ظلت جين تمشي حتى دخلت الادغال. اشجار شاهقة تبرز نحو السماء مثل نافورات الماء. نباتات كالخشار المختلف الالوان ونباتات متسلقة ومتشابكة واغصان الشجر واوراقها متداخلة مما يجعل الظلال وارفة ونادراً ما يمكن رؤية الفضاء.

شعرت جين بانفعال مضطرب عندما أزالت الاغصان لتدخل الى فردوس اخضر حيث ترتفع زقزقة العصافير في اعلى الاشجار، وطنين الحشرات. كل هذه الاصوات من حولها تنسج عالماً حياً لا يرى. راحت

جين تتأمل بتعجب الاشجار العملاقة ذات الزهور الحمراء كأن النار اضرمت ازهارها. واعجبتها ايضاً الشجيرات المتصدعة تحت رزماتها الليلكية، والاشجار المحاطة بالنباتات المتسلقة الصفراء الوردية التي تشبه الوشاحات الشفافة. في هذه الجنة الخضراء ينبثق سحر غريب. لقد عرف بيدرو هذا المكان منذ طفولته.

رأت جين في مفرق الاغصان زهرة سحلبية تشبه تلك التي اهداها اياها في اليوم الاول من وجودها في القصر الذهبي. مدت يدها وقطفتها بتأن. لونها احمر داكن مرصعة ببقع ذهبية. وتذكرت جين كلام بيدرو حول حياة النبات والازهار في الادغال.

وراحت جين تتأمل الزهرة البرية الانيقة. تساءلت ما اذا كانت الزهرة تزداد جمالاً لو علّقت على شعر اسود لامرأة برازيلية، مثل فيليسيا دي ايفانجيل مثلاً. وكانت جين منزعجة من دوران افكارها... فهي تكره عذاب هذا الحب الذي يجعلها تتخيل باستمرار ان الدوق مع نساء جميلات. انه عذاب تشعر به جين وحدها، فهو لم يفكر فيها وربما نسيها او هو لا يعلم شيئاً عما تعانيه.

بعد مغامرتها في الادغال، هذا العالم الغريب الساحر والمضطرب، تنبهت جين انه من السهولة ان يضيع الانسان في قلب الادغال. ان جمال الغابة خداع، كما تعرف انه خطر وعليها ان تبقى هنا، مختبئة وسط النباتات المتسلقة، يهدها طنين الحشرات وزقزقة العصافير.

كانت تنظر حولها عندما شعرت بوخزة خفيفة في ذراعها. وتطلعت فرأت حشرة مفترسة. جناحاها يرتجفان ثم ينطويان ولا يتحركان. كانت نحيفة، ولونها شاحب. فلم تصدق جين انه يمكن لحشرة جميلة كهذه

ان تكون مؤذية..وتذكرت ما قاله لها الدوق في احدى الامسيات عندما حطت حشرة مشابهة على نافذة مكتبه. قال لها وهو يبتسم بسخرية ان هذه الحشرة تصلي طالبة الغفران، لأنه من عادتها ان تقتل من تحب.

همست جين تقول:

«اذهبي يا صاحبة الجمال الشؤم»

بدت عينا الحشرة كأنها تحدقان بجين. وما لبثت ان فتحت جناحيها وطارت بين الاشجار تبعتها جين بنظرها. فلاحظت ان السماء بدت داكنة. فأصغت قليلاً لتسمع صوت المطر على الاوراق الكبيرة. وشعرت بقشعريرة عندما سقطت قطرات المطر الكبيرة على عنقها وذراعيها.

يا الهي! من الافضل ان تعود بسرعة قبل ان تبتل كلياً! راحت تركض وتسمع انهمار المطر بقوة. شعرت كأنها في منزل ضخم مليء بالنباتات الخضراء التي تتصاعد منها العطور الوحشية. الغيوم تتكدس والعتمة بدأت تعمّ الغابة. اضاءت السماء واضاء برق فضي جذوع الشجر، يرسم بوضوح الاوراق والازهار.

احتل الذعر قلب الفتاة الانكليزية الضائعة وسط عاصفة استوائية. انها لمجنونة حقاً! كان عليها ان تدرك ان يوماً حاراً كهذا ينتهي بعاصفة...

التمع البرق مثل سهم ناري بين الاشجار ساطعاً على شبحها الهارب وهطل المطر مدراراً وتبلل ثوبها الخفيف الذي راح يلتصق بجسمها.

كانت جين تركض مثل حيوان صغير مذعور وفي رأسها فكرة واحدة: الخروج الى الهواء الطلق... البرق يتعاقب مضيئاً لها الطريق، لكن الاغصان المتدلية تمنعها من التقدم، وتخدش قدميها وذراعيها:

«يا الهي!»

اصطدمت بكل قواها بشيء، ما تصورت انه جذع شجرة، الى ان ارتطمت يداها بعنف في جسم انسان. لا يمكن ان يكون سوى جسم الدوق، الناعم والقوي... لكن ذلك مستحيل،فهو على بعد اميال من الغابة.

«جين»

هذا الصوت جعل جين تحس انها في حلم او كابوس.

«هذا انا، بيدرو، اتسمعينني، يا مجنونة... جين، توقفي عن الارتجاف هكذا... والا فانك تحطمينني!»

«سيدي... بيدرو... اهذا انت؟»

تعلقت اصابع الفتاة به. وفي نور البرق رأت وجه الدوق ينحني على وجهها، وعيناه السمراوان تلمعان باضطراب. انه هو نفسه، انها تلمسه وتراه. وهو يشد عليها بقوة. لم تره غاضباً كالآن... كان يبدو عليه انه يريد قتلها. اسند ظهرها الى شجرة وراحت يداه تمسحان الدموع عن عينيها.

«جين: ايتها الفتاة الحمقاء!»

راحت يداه تتحسسان شعرها المبلل وعنقها. وكان المطر يهطل بغزارة فخلع الدوق سترته ووضعها على جين التي كانت ترتجف برداً. كانت على وشك الاغماء. قالت هامسة:

«هنا، تحت الاشجار، خطر علينا»

«الخطر موجود في كل مكان. النساء يرتدين الثياب الخفيفة ثم يتكلمن عن الخطر!»

«انا اعني خطر الصاعقة. بيدرو! لنذهب بسرعة. ارجوك!»

«سأفعل عندما تكونين مستعدة لذلك. اعتقد انك تخافين مني اكثر من خوفك من العاصفة. ما يحدث في الطبيعة ليس سوى عاصفة تنتهي بعد قليل. لكن الذي يجمعنا لن ينتهي ابداً. اليس كذلك؟»

«انا...انا لا اعرف ماذا تقصد»

لم تفهم سبب الحنان المندفع وسط اضطرابها، لم تكن ترى سوى شيء واحد: بيدرو، قد عاد الى الصقر الذهبي. وبحث عنها في كل مكان الى ان وجدها هنا.

أمر الدوق جين وهو يمسك ذقنها ويبعده عن صدره، رغبة منه ان يجبرها على النظر اليه.

«لا عذر بعد الآن يا جين! عانقتك، لأنك سرقت قلبي بعينيك الزمرديتين، يا ساحرتي الصغيرة. ولأنك وضعت على صدري يديك النحيلتين لتشعلي قلبي. اتحبينني يا جين، كما احبك؟..»

قالت جين، وقد فوجئت

«احبك! كنت اود ألاّ احبك، حاولت... انت وانا... انا من عالمين مختلفين»

«أنا أقول يا جين... إن جسمينا مفترقان فقط»

«اريد ان اتحدث عن وضعنا...»

«صحيح، يا حبيبتي، هذا الحديث مشوّق. وضعنا لا ينقصه الاغراء، حتى تحت الطوفان وبالرغم من البرق الذي ينير عينيك الساحرتين»

«انت مصر على تغيير معنى كلامي»

حاولت جين التخلص من الدوق، لكنه كان يحبسها بين ذراعيه ويشدها نحه بقوة.

«يا سيدي، ارجوك، هذا جنون! عندما تتوقف العاصفة، سوف تندم على كل ما قلته»

«اتريدين ان تقولي انني سأشكر العاصفة لأنها سمحت لي بأن اكلمك...»

اخفض عينيه صوب وجهها الشاحب والمبلل حيث كانت نظراتها الخضراء تلمع.

«هذا غريب: انه من الصعب الاعتراف بحب امرأة نحبها. فكيف مع امرأة عابرة كنت اود ان اطلعك على شعوري في هدوء، لكن لم تسنح الفرصة. كان يجب ان يحصل ما حصل. انها عاصفة في قلب العاصفة»

«انا لست سوى رفيقة ابنك. وانني انسانة فقيرة، خالية من الجاذبية، وتافهة. لا افهم ماذا تنتظر مني، لكن...لا اريد ان اذلّ حبي بقبول علاقة معك. لقد اعترفت لك بكل شيء! وارجوك ان تصدق ان ما اقوله حقيقة!»

همس الدوق:

«انني مقتنع تماماً، ايتها المخلوقة الصغيرة غير الواقعية! آه! يا جين! انت تدافعين عن شرفك، حتى وانت بين ذراعي، اليس كذلك! ارجوك ان تصدقيني، ان ذراعي ستكونان فردوسك وبيتك. احبك يا فتاتي الصغيرة. روحك البسيطة واد اضيع فيه عندما انظر اليك، ارى البراءة وشجاعتك وسحرك. وارى المرأة التي ارغب، والتي اريدها

زوجتي...هذا اذا تمكن الطيار ان يقلع في هذه العاصفة. تعالي، حان وقت الرحيل...»

« انا لا افهم...ماذا تقصد؟ الى اين؟»

«اذا حالفنا الحظ، يا حبيبتي، الى البرتغال.»

ضمها الدوق الى صدره في عناق حار:

«بيدرو، ارجوك!»

«الا تحبين العناق؟ يا حبيبتي، يجب ان تعتادي ذلك من الآن فصاعداً. لأنك ستصبحين زوجتي.»

«بيدرو!»

خبأت وجهها في صدره وقالت:

«اريد ان اعرف ماذا جرى. اين كنت؟ اعتقدت انك كنت مع...مع...»

قاطعها بسخرية:

«مع امرأة؟ هيا، الوقت لا يسمح بالمناقشة. وصلت العاصفة الى ذروتها وهكذا سيبقى الراغبون بالوصول الى الصقر الذهبي بعيدين عنا. حتى احقق امنيتي. امسكي بيدي يا حبيبتي واركضي معي!»

ستتذكر جين، كل حياتها، ما حدث تلك الليلة، اغرب ليلة في حياتها. عندما وصلا الى الصقر الذهبي كان الخادم بريميتيفو في البهو حاملا المعاطف. وضع كل منهما معطفا وراحا يحتسيان القهوة الساخنة. كان تريستاو مرتدياً ملابس السفر والحقائب في انتظار ان تنقل الى سيارة الجيب الواقفة امام ساحة القصر. بدأ المطر يخف والرعد يبتعد. لكن جين مازالت تسمع الاصوات الآتية من

الادغال. كانت اصابع تريستاو تتمسك بأصابع جين.

صرخ تريستاو متأثراً:

الطبول! ابي ان الهنود يودعوننا.»

«نعم، يا بني!»

حمل بيدرو الصبي على ذراعه ووضعه في السيارة. ثم قال لجين:

«اصعدي، يا حبيبتي»

ساعد جين بالجلوس في مقعدها بحنان.

«سيقودكما بريميتيفو الى الطائرة التي تنتظرنا في المدرج، ثم يعود ليأخذنا، انا وجوستوس. سنأخذ الاثنين معنا. يجب الا نتركهما بين ايدي اولئك الذين يجعلون من البرازيل بلداً مضطهداً، يعيش في الذعر...كنت تتصورين انني كنت امضي كل هذا الوقت مع امرأة، يا جين...»

قهقه الدوق واضاف:

«يا حبيبتي، كنت اساعد بعض الاصدقاء على الرحيل من البرازيل، وكان يساعدني زوج فيليسيا دي ايفانجيل. وصباح اليوم ، سافرت فيليسيا وزوجها في الباخرة وهما الآن في طريقهما الى البرتغال. الآن حان وقتك يا جين. ارجوك، لا تنظري الى الوراء. اذهبي الى الطائرة وانتظريني مع تريستاو. كل شيء، كما اخطط. ثقي بي.»

انطلقت سيارة الجيب. والتفتت جين نظرة وراءها وشاهدت بيدرو يدخل المنزل مسرعاً. صرخت قائلة:

«بريميتيفو، ماذا يفعل الدوق؟»

« انه يشعل النار في الصقر الذهبي يا آنستي، في المزروعات وفي كل ما يملكه هنا.»

«آه! لا!»

اغمضت جين عينيها واحست بصدمة تخترق قلبها. ثم قالت:

«اهو مضطر لأن يفعل ذلك؟ اليس هناك حلّ آخر؟»

اجابها الخادم الهندي في صوت ناعم وفخور:

«ليس ثمة حلّ آخر، يا آنستي. انها ارض آل زانتو، وعلى الدوق ان يشعل النار في القصر حتى لا يضع الاشرار ايديهم عليه. الدوق هو انسان شجاع وعظيم. ما من احد ينساه هناك في البرازيل. خاطر بحياته لمنع العسكريين من اضطهاد الناس. ورأسه مطلوب اذا بقي في البرازيل. لكن عليه ان يحرق المنزل.»

وبينما انطلقت السيارة في سرعة لا توصف كانت جين تفكر بألم ان الصقر الذهبي سيختفي الى الابد.

بعد مرور ساعة تقريبا، اقلعت الطائرة في الليل. وكانت الادغال مضاءة باللهب المتصاعد من الصقر الذهبي، ومن حقول البن والقطن. حلقت الطائرة فوق المحرقة الضخمة الحمراء الذهبية وكأنه الوداع الاخير.

وكانت جين تحاول حبس دموعها فألقت نظرة الى الدوق الذي كان يتأمل الليل من نافذة الطائرة. كانت ملامح وجهه ممتلئة حزنا. امسك يدها وضغط عليها بقوة وقال:

« الصقر الذهبي ملكنا. وسيبقى لنا الى الابد. لن يقع بين ايدي اولئك الذين لا يستحقون... ومن الآن فصاعداً لن يتسكع احد في هذه

الحدائق. لن يحتسي احد القهوة في ظل الاشجار. ولا يستمع احد الى اصوات الادغال في ليالي الصيف الجميلة. وسيبقى الصقر الذهبي في ذاكرتنا، كما كان سليماً. سيخرج من النار نقيا كالذهب.»

لم تتمكن جين من حبس دموعها.

همس الدوق قائلاً:

«لا تبكي يا حبي. ثمة حياة اجمل في انتظارنا.»

الطائرة تحلق وتريستاو نائم على كتف جين. حمله الدوق ووضعه لينام على الكنبة.

همس بيدرو قائلاً:

«انه يشبه والدته العزيزة كل الشبه»

نظرت جين اليه نظرة يائسة. وراحت تتساءل. والدته العزيزة! ادارت نظرها عنه لتشاهد، من دون ان ترى، الليل الملبد بالنجوم.

«جين!»

وضع بيدرو يديه الحارتين على كتفي الفتاة وقال:

«ارجوك ، اسمعيني. عندما اشرح لك كل شيء، لن تعود بيننا اية علامة استفهام»

سألته جين بدون ان تتجرأ وتنظر اليه:

«والدته...اما زلت تحبها؟»

همس الدوق وهو يحني رأسه نحو رأسها وقال:

«سأحبها دائما، لأنها شقيقتي ماغدالينا... مات خطيبها في البيرو عندما كانت تنتظر منه ولدا. فعلت ما يجب ان افعله. واصبح هذا الصبي ابني. و ماغدالينا اصبحت راهبة. لم اكن اتمنى لها هذا. كنت

أمل ان تتزوج لكنها رفضت ان تحب رجلاً آخر لم اكن افهم عنادها هذا. لكنني الآن افهم تصرفاتها من كل اعماقي. اعرف الآن ماذا يعني ان يحب الواحد انساناً اكثر من ايّ انسان آخره.

واستدار نحو جين التي لم تكن قادرة على الكلام.

حدق الدوق بيدرو دي زانتو في عينيها ورفع يده ووضعها على شفتيها. شعرت بلمسته الدافئة واحست بفرح قوي يختلج في فؤادها.

لا جدوى من الكلام.. النظرات وحدها تتكلم والقلب يعرف انه في مكان ما من الدنيا سيبنيان معاً قصراً جديداً ويسميانه الصقر الذهبي.